القسم الأول

"مفاهيم المقاومة وهويتها"

الفصل الأول

أولا: ما الحرب؟

الحرب في تاريخ الإنسان

تعامل الإنسان مع فكرة الصراع وصنع تاريخه، فكانت له طقوسه قبل وأثناء وبعد تلك الحروب. على مر التاريخ حاول الإنسان التعبير عن تلك الحروب والتعامل معها حتى قبل أن يعرف الكلمة المكتوبة. وهو ما تجلى في فنون الكلمة من أساطير وملاحم التشكيل وفنون الحركة من رقص وإيماء وكذلك بفنون الموسيقى والإيقاع.

مازالت جدران الكهف الشهير "التاميرا" باستراليا يحفظ لنا أول ما سجله الإنسان: ذلك الثور المقوس الظهر والبطن، أقوى ثور رسمه الإنسان حتى الآن. كما كانت منحوتات الآشوريين لأسود قوية بمرحلة أكثر تقدما. وان حلت مصارعة الثيران محل مصارعة الأسود في مرحلة متقدمة والى الآن، إلا أن قبائل (ماساي) الإفريقية تجعل من قتل الأسد احتفالية لها طقوسها المتميزة، مثلما أصبح (المتادور) في أسبانيا الآن رمزا لكل البشر يذكرهم بأجدادهم أيام مصارعة الأسود و حروبه الصغيرة.

في التراث الشعبي لأمم الحضارات القديمة، تجنح المثولوجيا الهندية (البراهما) إلى مزاج حربي حاد، حيث يمجد الحرب ويزكى الصراع من أجل انتصار الإنسان والحياة في نهاية الأمر.

أما الميثولوجيا الصينية فتجنح في معظمها إلى إزكاء السلم، ربما بتأثير التعاليم البوذية المضادة لمفهوم الحرب. كان "كونفوشيوس" يقول:

(الجنرال العظيم حقا هو الذي يكره الغزو وليس حقودا انفعاليا)

ملامح وطقوس الحرب

جرت العادة في كل الحضارات على توافر بعض الطقوس المشتركة، كأن يتم تقديم القرابين الكثيرة قبل وبعد المعارك وبعد الانتصار. المدهش أن بعض القبائل والأمم القديمة تقدم القرابين من الأسرى وجزء من الأسلاب التي يحصلون عليها. غالبا يتم ذلك وسط فرحة وتهليل وتحت أغطية أبخرة البخور وشذى العطور داخل المعابد أو خارجها وفى حضور رجال الدين والقادة.

الطريف أن بعض الأمم المتقدمة مازالت طقوسها القديمة وبقدر مدهش من التفاصيل. عرف عن اليابان أن يطلب القادة أثناء الحرب العالمية الثانية من الطيارين الشبان الذين يتقدمون تطوعا للمشاركة في الغارات الانتحارية المعروفة باسم (غارات الكاميكازى) بالحضور عشية الرحيل في محفل جنائزي. كانوا يلبسون اللون الأبيض الذي هو لون الحداد ويتنازلون رمزيا عن كل ما يملكون على الأرض. وفى اليوم التالي وعلى أرض المطار يتسلمون صندوقا أبيض اللون يمثل المرمدة التي تعد لحفظ الرماد (رماد الموتى بعد حرقهم على حسب تقاليدهم) بعدها يصعدون الطائرة لتنفيذ تلك المهمة الانتحارية!

في قبيلة "شاكو" الهندية بأمريكا الجنوبية، رصد العلماء ما يمكن أن نعتبره جملة من الطقوس التي يتبعها طرف ما قبل وأثناء وبعد المعارك في العديد من المناطق بالعالم القديم. فقبل الهجوم، ترسل القبائل بعض الشباب لجمع المعلومات ودراسة نقاط الضعف والقوة عند القبيلة الأخرى.. ثم يتم اتخاذ قرار الحرب وتحدد الخطة.. وفى ليلة اليوم الأول لبداية الحرب يمضونها في الرقص والغناء والموسيقى الحماسية على آلاتهم الإيقاعية، مع دهان أجسادهم ووجوههم باللون الأحمر (لون الدم). وفى تلك الليلة أيضا لا تبخل السيدات بجهدها في طهي أشهى الأطعمة، وتقديم الشراب وكأنها ليلة عرس!

أثناء المعارك يتقدم قادة المجموعات ولا تنتهي المعركة إلّا بالموت أو الانتصار. الطريف أن تلك القبائل لا تعرف فكرة الاحتلال ويكتفون بالغنائم وجمع الأسرى حيث يكلفون بالأعمال الشاقة.

بمضي الوقت تعدلت فكرة توزيع الغنائم على المحاربين. ففي الحروب العربية بعد الإسلام .. أمر الخليفة عمر بن الخطاب كبح جماح الجنود لأن واجب الجهاد كان يناديهم في كل مكان. رفض تقسيم الأراضي بينهم، ومنعهم من احتراف الزراعة حتى لا يميلون إلى الرخاء والتقاعد عن الحرب. انتهت فكرة توزيع الغنائم الآن، وأصبحت الأنواط والنياشين المرشوقة على الصدور بدلا عنها!

يبقى النظر إلى الجانب الأخر وما هي طقوس المنهزم؟ إن الإحساس بالخزي والقهر والإحباط يجعل الجيوش والشعوب المنهزمة على حالين.. الاستكانة أو الانتفاضة. وما بين الحالتين تنجلي معادن الأمم وتعمل القرائح. فما كانت خدعة حصان طروادة إلا شاهدا عمليا على مر التاريخ.

تسجل صفحات التاريخ كيف كانت نهاية القادة الأقوياء بعد الهزيمة. قديما كانت بعض القبائل تحفر المقابر الجماعية لدفن أنفسهم بعد الإحساس بقلة الحيلة. ويروى "هانز لينج" الذي عمل في خدمة "هتلر" عن اللحظات الأخيرة قائلا: (كان سيدي قد قتل صباح اليوم كلبه (بلوندى)، قبلها قال لي: (لينج.. عندي أمر خاص لك. لقد قررت أنا وفراو "براون" أن نموت معا..)

وهكذا كانت البداية والنهاية والطقوس في زمن الحروب!

الحرب من صور المقاومة

الحرب هي قانون أثبتته الأحداث والتاريخ على أنها أزليه، يعبر عنه صراع الجماعات. لكن الصراع وحده لا يكفى، انه تابع الإرادة وإدارة سياسية تسبقه، فالحرب تلي فكرة الحرب. وقد قدم البعض وصفا وتعريفا للحرب:

الحرب، هي البديل عن عدم وجود تشريع قانوني قوى قادر على حل النزعات بين الجماعات والدول، وبالتالي فالحرب مسعى (غير واع ربما) لفرض قوانين بعض الجماعات (الدول) على أخرى أو لفرض قوانين جديدة.

.. الحرب، هي النزوع إلى العنف النفسي، فالعنف أو الميل إلى السلوك العنيف كما هو في الأفراد، يوجد في الجماعات والأمم.

الحرب، هي العقد العنيف لتحويل بعض الدول والأمم إلى سوق تجارية لدول أخرى، أو لجعلها مصدرا لمواردها الخام.

الحرب، هي صوت مرتفع في مقابل عجز صوت الحكمة.

فكرة الصراع والحرب فى الأديان السماوية

فكرة الحرب في (اليهودية): إقرار بشريعة الحرب والقتال في أبشع صور التدمير والتخريب والهلاك والسبي.. كما جاء في سفر التثنية، الإصحاح العشرين، عدد 10وما بعده:

(حين تقترب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح، فان أجابتك إلى الصلح وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك بالتسخير، ويستعبد إلى يدك، فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة ، كل غنيمتها فتغنتمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب الهك...)

.. **فكرة الحرب في (المسيحية):** في عهودها الأولى كانت رافضة لفكرة الحرب: (.. من ضرب بالسيف سيهلك أو يجن...) ثم تبنى القديس "بولس" فكرة الدعوة إلى احتمال استخدام القوة (مع زيادة عدد المسيحيين، مع اضطهاد جنود الرومان لهم) ثم كان القديس (توما الاكوينى) صاحب فكرة (الحرب العادلة) وهى تلك الحرب التي يقررها الحاكم الدنيوي، والغرض منها هو الحق، وأن يسعى الجنود في معاركهم إلى فعل الخير. الآن تعلن الكنيسة أن عدالة الحرب تحددها عقول أصحاب الرأي الراجح بالمشورة، ويقررها الحاكم

.. **فكرة الحرب فى (الإسلام)**: كان لفظ (الجهاد) بديلا للدلالة على الحرب كلفظة شائعة. وفى بداية الرسالة كان التوجيه الإلهي إلى الرسول (صلع) في مكة هو (وأصبر لحكم ربك بأعيننا) .. سورة الطور، آية 48. وفى المدينة تقرر الإذن بالقتال حين يطبق الأعداء: (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير..).. سورة الحج ،آية 39. وفى السنة الثانية من الهجرة، فرض الله القتال وهو كره للمسلمين: (كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم، والله أعلم وأنتم لا تعلمون) سورة البقرة، آية 126.

ملامح التجربة الحربية

إن التجربة الحربية جد معقدة، فهي منبه غير تقليدي، لا هي أحادية ولا هي بسيطة، كما أنها لا تكتسب دلالتها إلا بوجود دوافع داخلية، مثل دوافع القيم العامة للمجتمعات، ودوافع الانضباط والخضوع لأوامر الجماعة.

عادة درجة استجابة المرء، إما مباشرة أو غير مباشرة لحدوث اللذة أو الألم، فتكون جملة الانفعالات التي يعانيها المرء هي التي ستحدد اتجاهاته وسلوكه. وقد يلجأ إلى "الخيال"، تلك القوة السحرية الساحرة القادرة على إنجاز الفن أو الأدب بأشكاله المختلفة.

هذا لا يعنى أن (الأدب المعبر عن الحرب) في جوهره وسيلة للخلاص الفردي، ولكن يعنى قدرة (الصفوة) من الناس الذين خاضوا التجربة (الحربية)، وقد امتلكوا الخيال والقدرة على التعبير (بأي وسيلة كانت) يحفظون لنا خصوصية تلك التجربة بكل ظزاجتها وخصوصيتها، بحيث تصبح دوما نبراسا هاديا للعامة والخاصة، وللأجيال القادمة. فاحتمال تجدد التجربة قائم ومستمر، ببقاء الإنسان على الأرض، واستمرار الصراع وعلى مستويات مختلفة.

يأتي (الأدب المعبر عن التجربة الحربية) بملامحه الخاصة: يكفى القول بأن النفس البشرية جبلت على حب الحياة، بينما يخوض الفرد التجربة الحربية مدفوعا بأمر الجماعة (المجتمع) وبناء على رغبتها، بل ويباركون موته. فالتجربة الحربية

ليست ذاتية بالكامل، وتحمل بين طياتها التناقض، فالمقاتل يسعى لإثبات الوجود وتحقيق الأهداف السامية، بينما الواقع المعاش فظ وقاس. لكل ما سبق نحن في حاجة إلى رصد التجربة الحربية وتأملها.

فالصراع باق، والأفراد الموهوبون لتسجيل التجربة (المبدعون) فرصتنا كي تقف مؤشرات الزمن عند تلك اللحظات أو الأزمنة الخاصة لتصبح عونا ودعما، لتجارب جديدة في المستقبل. فضلا عن أهمية تلك الأعمال في تغطية الجانب النفسي والتربوي الضروري للأجيال الجديدة، حتى تصمد أمام تحدياتها الآتية يوما ما!

على النقيض، قد يصبح بني البشر يوما ما قادرون على كبح جماح غوائل أنفسهم، ويصبح للصراع شكلا بديلا عن (الحروب) إذا كانت الأعمال المرصودة عن التجربة الحربية أكثر إنسانية، وتسعى كي تصل رسالة الكاتب والمفكر الحقيقي للغرض الحقيقي من وراء رصد تلك التجربة القاسية، وأنها تجربة إنسانية يجب تأملها. إن (أدب التجربة الحربية) الحقيقي (الجيد) هو أدب إنساني، يرفع من قيمته وشأنه، ويزكى القيم العليا في النفوس، انه (أدب الدفاع عن الحياة). والمتأمل قد يجد أن أجود الأعمال الحربية (الإبداعية) هي التي دافعت عن الحياة، ولم تزكى القتل من أجل القتل.

أقوال في التجربة الحربية (الحرب)

قال **الناقد الإنجليزي** "**ستيفن سبندر**": **(لا شك أن الألم والشر ليسا من الأمور الجديدة، ولكن كانا يزيدان وضوحا في أثناء الحرب**، وربما زاد الألم في الحرب الحديثة)

خصوصية الحرب ترجح التعبير عن الأضداد: الموت مقابل الحياة، رهافة المشاعر مقابل شراسة المقاتلة، حتى قال (**هيمنجواى**): (إن حياة المحارب مصارعة من أجل الأمعاء المفتوحة)

قال "**مارتن فان كريفلد**"..(**الحرب هي الشيء الوحيد الذي يتيح ويقتضي في نفس الوقت إظهار كل ملكات** الإنسان وتوظيفها)

قال "**فوكوياما**"..(**أن انتصار الليبرالية الديمقراطية الغربية لا يدعو للابتهاج.. لأن الزمن المقبل يدعو للملل وهو زمن حزين، لأن (الصراع) من أجل إثبات الذات واستعداد المرء للمخاطرة** بحياته من أجل هدف مجرد، والصراع الأيديولوجي العالمي يدعو إلى الجسارة كالإقدام، ويثير الخيال والمثالية ...)

قال "**هيجل**".. (تعتبر الرواية مجالا ملائما لوصف الصراع بين شاعرية القلب ونثرية العلاقات

الاجتماعية معلنا في الآن نفسه، وظيفتها الاجتماعية.)

قال "**باختين**".. (جنس الرواية يتلازم مع التعددية اللغوية.. أي تقتضي تعدد وجهات النظر من مواقع اجتماعية مختلفة وهو لا يتم إلا في مناخ قسوة الحرية)

قال "**فتحي غانم**".. (التجربة الحربية توازى الأحداث فى الرواية الجيدة)

قال "**السيد نجم**".. (**التجربة الحربية تعبر عن المفارقة في الحياة، فالنفس البشرية جُبلت على حُب**

الحياة، لكن الناس تريد بطلا)

تعريف القانون الدولي للحرب (هي حالة عداء تنشأ بين دولتين أو أكثر، وتنتهي حالة السلام بينهما، وتستخدم فيها القوات المسلحة في نضال مسلح، تحاول فيه كل دولة إحراز النصر على الدولة الأخرى، ومن ثم فرض إرادتها عليها، وإملاء شروطها المختلفة من أجل السلام)

إلّا أن السؤال.. كيف يمكن للإنسان التعبير عن تجربة المقاومة إذا كانت من أجل ترسيخ المفاهيم والقيم السماوية والإنسانية العليا؟

وهذا هو السؤال الذي حاولت الإبداعات والآداب الإجابة عليه، وهو ما يمكن أن نطلق عليه مصطلح "أدب المقاومة تعبيرا عن التجربة الحربية". "أدب الحرب"، الذي ينبثق من المقاومة و "أدب المقاومة" كمفهوم أعم وأشمل.

*****

ثانيا: ما الثورة؟

الثورة في تاريخ الإنسان

إن البعد الثقافي فى الثورات طوال التاريخ البشرى، هو المكون الخفي/ الظاهر لها، من حيث أن الثقافة هي معطيات تفاعل الفرد مع بيئته (البيئة بالمعنى الشامل: المكونة من الجمادات والبشر).. ذلك منذ أن اعتلى الإنسان الشجرة بحثا عن الأمن وكوسيلة بمعنى ما لمقاومة عوامل التهديد من حوله (الحيوانات المفترسة وغيرها).. وحتى عرف ومارس التعامل مع التقنية الرقمية وجهاز الكمبيوتر، وما لها من دور فاعل فى تشكيل (رأى عام).. بعد أن أصبحت التقنية أداة إعلامية/ ثقافية، ووسيلة اتصال وتواصل.

ملامح الثورات

لعل أهم ملامح ومعطيات الثورة هي إسقاط عوامل القهر والفساد والاستبداد، ثم السعي إلى ترسيخ قيم "الحفاظ على الهوية، والدعوة إلى الحرية، والانتماء لأرض الوطن والقيم العليا فيه".. وكلها تبلور ملامح "المقاومة" الايجابية والسلبية معا.

الثورة من صور المقاومة

الثورة هي عمل يتسم بالعنف، جماعي الطابع، موجه ضد السلطة القائمة، من أجل أهداف مشروعة، وهى ظاهرة فاعلة ومؤثرة في التاريخ السياسي للجماعات البشرية، الثورة هي ظاهرة إنسانية، أزلية/ أبدية، رصدتها صفحات التاريخ، ولا ينتظر أن تختفي، الثورة هي التعبير العنيف الظاهر، نتيجة الصراع، بين جموع الأفراد والسلطة/الإدارة القائمة، الثورة هي الإفراز الطبيعي نتيجة شعور غالبية أفراد الجماعات بعدد من الظواهر السلبية، بما يتصل منها بالعيش حياة كريمة (على وجهيها المادي والمعنوي)، الثورة هي فى النهاية (سياسيا) تغيير الوضع الراهن – سواء إلى وضع أفضل أو أسوأ – باندفاع حركة عدم الرضا، والتطلع إلى الأفضل أو حتى الغضب. وهو ما قننه "أرسطو" على شكلين من الثورات: التغيير الكامل من

دستور لآخر.. أو التعديل على دستور موجود، الثورة قادرة على إبراز الطاقات الكامنة للأفراد.. وبقدر توجيه الطاقات، تحقق الثورة أهدافها، الثورة تهدف دوما إلى إسقاط وإبعاد السلطة القائمة، ليحل محلها سلطة أخرى مرضى عليها، الثورة بعد نجاحها فى إسقاط السلطة، إما تحمل صفة (السلمية) أو (الدموية)، وهو ما يقدر بالنظر إلى مجموع من يقتل/ يستشهد من الأفراد، بالإضافة إلى جملة الخسائر المادية الأخرى. الثورة فى دلالاتها الايجابية هي (مجموعة من الخطوات المتسارعة لتحقيق تغيرات اقتصادية، سياسية، اجتماعية.. ومرآة هذه المنجزات ووسيلتها هي التغيرات الثقافية (قبل وأثناء وبعد) الإجراءات والخطوات الثورية.

تعريف الثورة

تعريف الثورة كمصطلح سياسي

"هي الخروج عن الوضع الراهن، سواء إلى وضع أفضل أو أسوأ من الوضع القائم" الثورة ظاهرة هامة في التاريخ السياسي.. فهي حركة سياسية في البلد، حيث يحاول الشعب أو الجيش أو مجموعات أخرى في الحكومة إخراج السلطة الحاكمة. تستخدم هذه المجموعات الثورية العنف في محاولة إسقاط حكوماتها.. ثم يؤسس الشعب أو الجيش حكومة جديدة في البلد بعد إسقاط الحكومة السابقة، يسمى هذا التغيير في نظام الحكومة "الثورة" (ثورة الشعب الأمريكي ضد بريطانيا، وأسس الأمريكيون الولايات المتحدة.. الثورة الفرنسية عام 1789 استمرت 10 سنوات وانتهت عام 1799 م.. ثورة أكتوبر في روسيا 1917 الثورة الجزائريةم1954م، في إيران تمرد الشعب ضد "الشاه" في 1979م وأسس دولة دينية، الثورة البرتقالية في أوكرانيا 2004)

تلاحظ أن الثورات التي تبدأ شعبية، قد يتولى السلطة بعدها الجي.. كما معظم الثورات في أمريكا اللاتينية. ومعظم الثورات في التاريخ السياسي تتسم بالعنف،

والثورة كثيراً ما تؤدى إلى مجموعة من التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، تؤدي إلى تغيير جذري شامل في المجتمع.

التعريف التقليدي للثورة

(وضع مع مولد الثورة الفرنسية) الثورة هي قيام الشعب بقيادة نخب وطلائع من مثقفيه لتغيير نظام الحكم بالقوة.

وقد حدد المفكر "ماركس" تلك النخب والطلائع من طبقة "البروليتاريا" أو الطبقة العاملة التي راجت مع الثورة الصناعية.

التعريف الحديث للثورة

الثورة هي التغيير الذي يحدثه الشعب من خلال أدواته، مثل "القوات المسلحة" أو "المنظمات والتجمعات الشعبية مثل النقابات".. وقد تندلع الثورة من خلال قادة وشخصيات، غالبا تتبنى فكرا جديدا، مثل "غاندي".

وقد تبنت العقلية الجمعية الآن، نظراً لمعطيات وسائل الإعلام والاتصال الحديثة المفهوم العام، أن الثورة هي: الخروج على الحاكم والسلطة، أو الانتفاضة ضد الحكم الظالم.. (من غير تلك الشخصية التي تمثل رأس الحكمة.. وهى من أهم ملامح ثورة 25يناير 2011م، لذا تعد منجز انساني في مميز في تاريخ الثورات)

أنواع الثورات

أولا.. الثورة الشعبية: وهى تلك التي يتبناها ويسعى إليها ويحققها، جموع الناس فى بلده.. ويعبر عنها الآن بثورات "الربيع العربي" فى تونس– مصر– اليمن، وجملة ما ترصده وسائل الإعلام فى عدد من البلدان العربية. ربما أشهر نماذج الثورات الشعبية فى التاريخ الحديث هي الثورة الفرنسية عام 1789م.. وفى التاريخ المعاصر، ثورات أوروبا الشرقية عام 1989م.. ثم ثورة "أوكرانيا" المعروفة بالثورة البرتقالية في نوفمبر 2004م.

ثانيا.. الثورة العسكرية: وهي التي قد تسمى انقلابا، كما ثورة 23يوليو بمصر، وتلك التي شاعت وسادت فى قارة أمريكا الجنوبية (اللاتينية)، خلال عقدي الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين. وقد تبدأ الثورة العسكرية على شكل مقاومي، حيث تنشط المقاومة المسلحة فى مواجهة محتل أو مستعمر.. مثل الثورة الجزائرية (1954-1962م)..(مع الإشارة إلى أن مصطلح "الثورة" قد يستخدم للتعبير عن انجاز هائل التأثير فى حياة الفرد والجماعة.. كما هو شائع الآن بمصطلحى "ثورة المعلومات وثورة الاتصالات"، بعد شيوع التقنية الرقمية) لقد بات المفهوم الضمني للثورة.. هي إجراء عنيف لإصلاح المجتمع والتطهر من براثن أخطار محدقة وفاعلة فى مجتمع ما.. بالتالي فالثورة منجز يهدف إلى الحفاظ على المجتمع ووجوده وهويته وكينونته.. وان ترافقت مظاهر عنف شديد أثناء تلك الثورة. فالثورة هي الترياق لأمراض المجتمع، وان ترافقت مع عدد من المخاطر، وبعض الأعراض الجانبية.

خصائص الثائر

الثائر شخصية تتسم بالايجابية والتفاعلية، لدية ما يبرر به سلوكه الرافض، مع الشعور الكامن لديه من الإحباط بسبب تراكم المشاكل، والشعور بالغضب لعدم حل تلك المشاكل. وغالبا ما يكون هذا الإحباط والغضب شائعا بين أفراد الجماعة من حوله.. فالخروج للثورة وان بدا سلوكا فرديا، فهو معضد من الجماعة حتما، وإلا فشلت الثورة. لذا كان ارتباط مصطلح الثورة، بدلالة مقولة "الإرادة الشعبية". والغضب يبدأ فرديا من شعور الفرد بالظلم والقهر والحرمان من حاجاته الأساسية.. ثم يتطور إلى غضب فئوي أو طائفي.. ثم يتطور إلى غضب جمعي ثائر يتوجه بدافع البحث عن حلول لتوفير الاحتياجات المسلوبة من عيش وحرية وكرامة إنسانية وعدالة اجتماعية. وفى الغضب الجمعي الثائر يتجمع الناس ويتوحدون، وتظهر صفة المشاركة الجمعية فى الحشود الثائرة.. وهو ما يفرز العديد من الصفات والحالات النفسية، للفرد والجماعة المشاركة.. حيث تقل درجة "الخوف" أو تكاد تنعدم.. وتزيد حدة "الغضب" إلى حد أن توصف بالغضب العنيف.. ويرتفع مستوى

"الشجاعة" إلى حد أن توصف ب"الجسارة". فتنقلب موازين القوى فى صالح الغضب الشعبي الثائر والهادر، فى المقابل وعلى النقيض يبدأ الغضب السلطوي الجائر فى الانكسار، حتى تتحلل القوى السلطوية المهيمنة، لينتهي الأمر بنهاية مأسوية لرجال السلطة، والنظام. ينتصر الثائر فى النهاية، لأنه يسير وفقا لقانون الحتمية التاريخية للتطور..

*****

"العصيان المدني" بين المقاومة السلبية والثورة

تعد فكرة مقاومة قانون ظالم لها جذور فى أواخر القرن18م، وراج نسبيا فى القرن19م، ثم رسخ فى القرن ال20م. ويمارس من أجل التغيير وفى مواجهة السلطة. لا يوجد التعريف القاطع والمحدد للعصيان المدني.. وقد برزت ملامح عامة وتعريفات مختلفة، منها: هو أحد الطرق التي ثار بها الناس على النظم الحاكمة والقوانين غير العادلة، وقد استخدم في حركات مقاومة سلمية عديدة موثّقة؛ في الهند (مارسها "غاندي" من أجل استقلال الهند عن بريطانيا).. وفي جنوب أفريقيا في مقاومة الفصل العنصري (بزعامة مانديلا)، وأثناء حركة الحقوق المدنية الأمريكية (بقيادة "مارتن لوثر كنج").. وفى مصر إبان ثورة1919م لمواجهة الاحتلال البريطاني.

وعلى الرغم من اشتراك العصيان المدني مع الإضراب، في كونهما وسيلتان متلازمان غالبا وتستخدمهما الجماهير للمطالبة برفع ظلم أصابها، إلا أن الإضراب متعلق بحقوق العمال في مواجهة صاحب العمل (والذي يمكن أن يكون هو الحكومة).

قال الامريكى "هنري دافيد ثورو": "هو رفض الخضوع لقانون أو لائحة أو تنظيم أو سلطة تعد في عين من ينتقدونها ظالمة".

قال "جون راولز": "إنّه عمل عام، سلمي، يتم بوعي كامل، ولكنه عمل سياسي، يتعارض مع القانون ويطبق في أغلب الأحوال لإحداث تغيير في القانون أو في سياسة الحكومة".

نشأة مفهوم العصيان المدني

يمكن التقاط جوهر العصيان المدني قديما، حيث تناولت أسطورة "أنتيجون" فكرة العصيان، فيها تمردت البطلة على قوانين المدينة لتكفل لشقيقها مدفناً لائقاً. وفي كوميديا "ليسيستراتا" ل "أريستوفانيس"، تمردت النساء وتمنعن عن أزواجهن لإرغامهم على وضع نهاية للحرب. كما يسجل التاريخ الروماني المظاهرات النسائية في عام 195 ق.م. المناهضة للقيود المفروضة على الملابس، وكذلك مظاهرات عام 42 ق.م. ضد الضرائب.

كما وضح فى التاريخ الأوروبي صراع السلطة الدينية والمدنية.. ففي القرن الخامس عشر، استند بعض رجال الدين لمبدأ السيفين الذي وضعه البابا "جلاسيوس" الأول في القرن الخامس، الذي استند بدوره علي المبدأ الإنجيلي: "إعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله"، بينما عملت الكنيسة على إرساء مبدأ الطاعة المطلقة، ومذهب "بولس" الرسول المستند على قاعدة: أنه لا توجد سلطة غير السلطة الإلهية.

وبدا القديس "توماس" الاكويني في "الخلاصة اللاهوتية"، متمردا على مبدأ الطاعة العمياء للقانون، معلناً قبوله لعصيان قوانين ظالمة، على ألا تتعارض تلك القوانين مع القانون الإلهي.

وفي القرن السادس عشر، قام البعض مثل "اتيان دو لا بويسي" أو مجموعة "المونماركوماك" (مجموعة فرنسية مناهضة للملك) بوضع نظريات لرفض الطاعة الطاغية. وكانت حركة "استقلال المستعمرات" في مواجهة الحكم المطلق، فقد أتاحت هذه الحركة الاستقلالية وضع الإطار النظري للعصيان المدني بواسطة "هنري ديفيد ثورو" من خلال بحثه بعنوان "مقاومة الحكومة المدنية" المنشور في عام 1849م،

بعد رفضه دفع الضريبة المطلوبة لتمويل الحرب ضد المكسيك. قام ناشر البحث بإعادة طبعه بعد وفاة ثورو تحت عنوان: "العصيان المدني".

خصائص العصيان المدني

عصيان مباشر: إذا كان فعل العصيان المدني هو خرق واع ومتعمد للقانون.. مثلما فعل "كنج" بهدف شغل السود للأماكن المخصصة بمقتضى للقانون للبيض.

عصيان غير مباشر: إذا كان فعل العصيان نحو قاعدة لا تكون محل الخلاف، مثل أن يتم الاعتصام للاحتجاج على قانون المرور.

عمل عام: أي يتسم بأغلبية قبول شعبي (وإلا وصف بالعصيان الاجرامى)، وهو ما عنى ضرورة ممارسة دعاية ناجحة ومكثفة لإنجاح العصيان.

حركة ذات رسالة جماعية: أي يندرج تحت مبدأ الحركة الجماعية، وأن يكون عمل جماعي

حركة سلمية: يلجأ الممارس للعصيان إلى وسائل سلمية، فالعصيان المدني يهدف إلى الدعوة إلى إطلاق حوارات عامة. ولبلوغ هذا الهدف، فهو يخاطب " الضمير الغافل للأغلبية" أكثر مما يدعو إلى أعمال عنف. ويقول "ماكس وابر": إن العنف منوط بالدولة، التي تمتلك وحدها سلطة "العنف الشرعي". وقد يكون هذا العنف بدنياً و"رمزياً" في آن واحد أي "نفسي" بل غالباً اقتصادي.

مبادئ عليا: ينادي القائمون على العصيان المدني "بمبادئ عليا"، تتفوق على الفعل موضوع النزاع. وهو أهم ما يميز العصيان المدني، إذ أن هذه السمة هي ما تضفى عليه "صفة القيمة" و"نوعا من الشرعية". كما فى حالة "مناهضة الحرب".

الآخر.. الذي نعني؟

يبدو أن "الآخر" كمصطلح، أو مفهوم أنطولوجى، يعد من المفاهيم الملتبسة، وإلا ما دلالة مقولة الشاعر الفرنسي "رامبو": "الأنا شخص آخر". كما قال المفكر "أريك فروم": "تتجلى الرغبة في التوحد مع الآخرين عبر أدنى أنواع السلوك مثل الجنس،

وأسماها مثل التواصل الوجداني والعقلي".. وهو يدلل بذلك عن حاجتنا للآخر حتى نتكامل، لأن "الآخر" وهو كل ما يختلف عن "الأنا"، هو مجال الإنساني الذي يتخارج فيه الإنسان عن نفسه.

وهو ما يراه "رمضان بسطويسى" فيقول: "إن الإنسان في حالة صراع دائم وبناء مع اليأس، ويمثل "الآخر" جزءا من وجودنا، ونحن نمثل جزءا من وجوده.. ودائما ما تكون العلاقة بين "الأنا" و"الآخر" ذات بعدين، الاتصال والانفصال.. فكثيرا ما يكون وجودنا استجابة لما يثيره "الآخر" فينا من أفكار وردود أفعال تجاهه.."

إنّ مفهوم "الآخر" في العقلية العربية تداخل وانبثق في الآن نفسه مع مفهوم "الهوية" خلال مرحلة النضج والانفتاح العربي على "الآخر"، مع نهايات القرن التاسع عشر الميلادي، وبدايات القرن العشرين. ولم تكن تلك المرحلة إلا محصلة جدلية للكثير من الأحداث والخبرات الجديدة على الساحة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، بل والثقافية.

لقد تبدى "الآخر" خلال القرن19 وبدايات القرن20 (فترة الاتصال المباشر والكثيف مع الآخر الأوروبي والأمريكي) في الأشكال التالية: "الآخر الغربي" بشموله الفكري والحضاري- "الآخر الغربي" نموذجا يحتذي- "الآخر الغربي" القابل للتحدي والمواجهة- "الآخر الغربي العدواني" (سواء بالعدوان المباشر والاحتلال أو الهيمنة بأشكالها المختلفة).

الآخر العدواني.. تعريفه وملامحه

إذا كان "الصراع" هو سمة "الإنسانية" على مر التاريخ.. فالتاريخ الحربي للإنسان هو القادر على كشف الحقائق، وتاريخ صراع الشعوب من أجل حياة أفضل، من التمرد حتى الثورة.

إلّا أن هذا التاريخ (لجموع الناس) لم يسجل بعد! حرص الحكام على تاريخهم الشخصي وحفروا على جدران المعابد ونقشوا أسماءهم على كل ما أمكنهم أن يسجلوا عليه من فخار وجلود وغيرها، بينما تجاهلوا تلك الثورات الشعبية، ونادرا ما تسجل!

بينما رصد التاريخ الحربي ورصد ثورات الشعوب، وحدهما.. هو ما سوف يقف إلى جوار العامة والشعوب والحقيقة. ولعل الإبداعات الشفهية والمكتوبة أو الموثقة، هي القادرة على اطلاعنا على أسرار صراع الشعوب، وبيان ملامح "الآخر العدواني".. انه "أدب المقاومة" إذن.

إذا كان "**العدوان**" هو ظاهرة التعبير عن الصراع بين "الأنا" و"الآخر"، سواء بين الأفراد والجماعات والبلدان والأمم، في مواجهات تتسم بالعنف. فيتبدى ذاك الصراع معبرا عن نفسه على شكل معضلات وأزمات، كما يعبر عن نفسه من خلال الحروب والثورات.

إن صور العنف العدواني كثيرة ومتعددة، بداية من: السب، التهكم والسخرية، الشماتة، الغيرة، البغضاء، الكراهية، بالإضافة إلى الهيمنة والاستلاب والقهر، ثم المقاتلة.

وللعدوان وظائف: منها البغيض الكريه، ومنها الواجب والمشروع.. فالعدوان من أجل الاستيلاء على الأرض والثروات وغيرها أمر بغيض، بينما السلوك العدواني في الطفل يعد محاولة للاستقلال وبناء الشخصية.

ويمكن إجمالا القول بأن سمات السلوك العدواني يتسم بالآتي: إذا كانت نوايا المعتدى.. تبطن شرا، هجومية، تكون نتيجتها مؤلمة للغير. قدم "بارون" تعريفا موجزا للعدوان يقول:

"انه أي شكل من أشكال السلوك يوجه مباشرة، بهدف إلحاق الأذى والضرر بالكائنات الحية".

إن البحث في موضوع "العدوان" دوما يلحق به البحث في بعض المصطلحات الملحقة به. كما "العدائية": وهى العدوان دون إلحاق الأذى بالآخر، وان سوى البعض بين العدوان والعدائية.. كذلك الغضب، الغيرة، الحقد، الحسد، التوتر، الإحباط.. كذا التطرف والإرهاب.

الإبداع في مواجهة "الآخر العدواني"

الشواهد تشير إلى خصوصية تجربة الحرب والثورة. فالسلوك الإنساني نابع عن توتر ما (هذا التوتر إما خارجي أو داخلي)، وبالإبداع يسعى المرء للإقلال من التوتر لإحداث درجات من التكيف النفسي.. وشدة الصراع فى تلك التجربة، وفي هذا الإطار المركب والقاس، جد معقدة.. لذا فهي منبه غير تقليدي.. لا هي أحادية ولا هي بسيطة، ومع ذلك لا تكتسب دلالتها إلا بوجود دوافع داخلية، مثل: دوافع القيم العامة للمجتمعات، ودوافع الانضباط والخضوع لأوامر الجماعة.

وإذا كانت درجة استجابة المرء، إما مباشرة أو غير مباشرة لحدوث اللذة أو الألم، فتكون جملة الانفعالات التي يعانيها المرء، هي التي ستحدد اتجاهاته وسلوكه. وقد يلجأ إلى "الخيال"، تلك القوة السحرية الساحرة القادرة على إنجاز الفن أو الأدب بأشكاله المختلفة.

ما سبق لا يعنى أن أدب المقاومة المعبر عن تجربة الحرب أو الثورة، في جوهره وسيلة للخلاص الفردي، ولكن يعنى قدرة "الصفوة" من الناس الذين خاضوا التجربة، وقد امتلكوا الخيال والقدرة على التعبير (بأية وسيلة كانت) يحفظون لنا خصوصية تلك التجربة بكل طزاجتها وخصوصيتها.. بحيث تصبح دوما نبراسا هاديا للعامة والخاصة وقت الشدائد.

يكفى القول بأن النفس البشرية جبلت على حب الحياة، بينما يخوض الأفراد التجربة الحربية والمشاركة فى طوفان الجماعات يالتمرد والثورة، مدفوعا بأمر الجماعة (المجتمع) وبناء على رغبتهم، وقد يباركون موته. إن تلك التجربة القاسية والخطرة ليست ذاتية بالكامل، وتحمل بين طياتها التناقض، فالمقاتل والثوري والمتمرد يسعى لإثبات الوجود وتحقيق الأهداف السامية، بينما الواقع المعاش فظ وقاس.

إن (أدب المقاومة في مواجهة الآخر العدواني) ضرورة جوهرية في حياة الشعوب، وهو ما كان منذ الأزل والمتوقع إلى الأبد! ذلك من خلال ثلاثة عناصر، هي:

- الكشف عن الجوهر الأصيل في الذات الجمعية (الأنا) وفضح العدوانية في الآخر المعتدى. وهو ما يزكى عناصر القوة فينا لتعضيدها، والكشف عن عناصر الضعف فينا فنتجاوزها ونحل مشكلتها. وبالكشف عن جوهر تفكير الآخر العدواني نستطيع تفادى عناصر قوت ومواجهته بكل السبل الممكنة.

- التجربة الحربية والثورية في جوهرها تجربة إنسانية بالعموم، وكلما كان الإبداع المعبر عنها محتفظا بالجوهر الإنساني فيها، كلما أنتجت تلك التجربة عملا إبداعيا راقيا. مهما كانت الشواهد قاسية وشرسة، إلا أن حرص المبدع على إبراز الراقي والإنساني في الإنسان المحارب وفى ممارسة التجربة.. كلما كان أدباً راقياً وجميلا. فالعدوانية الظالمة تعد معززة لمطلب الحق والعدل والإنسانية.

- أما وقد زاد الصراع وإشتعلت نيران الحرب وتسعى الشعوب لإسترداد حقوقها، فلا حيلة إلا "التوثيق"، والإبداع أحد تلك الوسائل الهامة في التوثيق الباقي، فالكلمة والفنون تبقى بعد أن يذهب الجميع.

*****

ثانيا: أدب المقاومة والهوية

إن الوعي المشف بين طيات العمل الأدبي، ليس إلا وعى الأديب ذاته، ولا يجب أن تكون مقولات الأديب فعلا مقحما على خصوصية العمل الأدبي. لذلك يعد أدب المقاومة هو شكل الحوار الإنساني المبدع المعبر عن الصراع بين الواقع والمثال أو العقلي أو التنظيرى المرجو .. بهدف إعلاء شأن الواقع عله يقترب من المثالي. وتعد المقاومة رد الفعل في حالة توافر عنصر "الوعي" بالذات والآخر مع توافر عنصر الرغبة في التجاوز والإنجاز.

إن قضية "الهوية" يلزم معها الإشارة إلى مصطلحي "الانتماء" و"الالتزام" مع توجه سياسي واع في إطار ثقافي عام يعي الحضارة الإنسانية وكينونة الذات وخصوصيتها.

إلا أن السؤال عن الهوية يعبر ضمنا عن الخوف من الغياب في مواجهة "الآخر" خصوصا خلال فترات التحول في حياة الشعوب.. لكن السؤال نفسه يحمل قدرا من الطموح والرغبة في التحقق.

أما عن "الانتماء" و"الالتزام"، فقد شاعا في القرن العشرين. ولعبت المذاهب الفكرية في توجيه الأدب، فشيوع الواقعية صاحب الدعوة إلى الانتماء (الذي هو الانتساب إلى الواقع لكونه جزءا من الإنسانية) مع الدعوة بالالتزام بوجهة نظر أيديولوجية ما أو موقف معين.

تعريف الالتزام في معجم "لاروس": "الالتزام هو المشاركة في القضايا السياسية والاجتماعية، والملتزم هو الذي يتخذ موقفا في النزاعات المختلفة معبرا عن طبقة أو حزب أو نزعة"

وفي الفكر الوجودي للانتماء والالتزام أهمية خاصة، قال "جان بول سارتر": "أن الإنسان مصدر الوجود، فهو الذي يعطى للأشياء معناها، ولا قيمة لأي شئ غير ذات الإنسان، لذلك يعد حرا.. عليه فالأديب ملتزم إذا ما اختار مهنة الكشف عن سر الإنسان والعمل على كشف ما يراه معيبا، وهو بنفس الدرجة يعد مسئولا".

لقد بدأ القرن العشرين والعالم العربي يبحث عن ذاته (هويته) في مواجهة الآخر المحتل.. بينما ينتهي القرن ونحن في بداية قرن جديد.. مازالت القضية (الهوية) محل السؤال. فان كانت القضية في البداية تبحث عن الخلاص من المستعمر، فأنها الآن تبحث عن الخلاص الثقافي والفكري في ظل ثورتي الاتصال والمعلومات. وهو ما يطلق عليه بالغزو الثقافي والهيمنة الإعلامية. وقد أثارت المخاوف بالتالي: (التعرض لفقدان الهوية العربية والإسلامية، حالة من الاغتراب قد تصيب البعض، التأثير على بعض الثوابت الثقافية.. وغيرها)

ربما يجدر الإشارة إلى بعض الملامح الفكرية في بدايات القرن العشرين وقضية الهوية، ولتكن تلك المناظرة الفكرية التي دارت بين الشيخ "محمد عبده" والكاتب "فرح انطون" حيث كان البحث عن الهوية متمثلا في فكرة أصول الدولة المدنية.

فقال الشيخ بضرورة توافر النظر العقلي لتحصيل الأيمان، البعد عن التكفير، والاعتبار لسنن الله في الخلق مع عدم إعطاء السلطة للشيوخ وإبقاء مدنيين عليها.

أما فرح انطون فقال بأن غرض الحكومة المدنية حفظ الأمن بين الناس وحفظ الحرية ضمن دائرة الدستور، المساواة بين الناس بقطع النظر عن مذاهبهم ومعتقداتهم، وأن للسلطة الدينية اختصاصاتها المحددة.. مع النظر إلى أن العقل البشرى مطبوع على الاختلاف والكون مطبوع على التنوع.

.. إن فن الرواية لم يكن بالفن الراسخ بعد خلال بدايات القرن العشرين، ويمكن التأكيد بثقة الآن أن هذا الفن ولد وترعرع ورسخ تحت إلحاح الحاجة إلى التعبير الإنساني عن تلك القضايا الفكرية التي راجت في ذلك الحين. كانت هناك العديد من المحاولات في النصف الثاني من القرن التاسع عشر للتعرف على فن الرواية الذي بدأ بالترجمة ثم المحاكاة الكاملة وغيرها من المحاولات. إلا أن الراصد لتلك الفترة وما كتب حقيقة في هذا الفن، لا يجد إلا قضية الهوية والبحث عن الذات هي الأصل وهي الدافع الحقيقي وراء روايات كتبت بالفعل (وبغض النظر عن البعد التقني والفني الذي وصلت إلية الرواية فيما بعد).

فقد استخدمت الرواية كسلاح له دوره، وهو ما قام به "فرح انطون" نفسه بعد كل المناظرات الشاقة التي مارسها أمام الشيخ "محمد عبده".. فنشر رواية "الدين والعلم والمال" عام 1903م ثم رواية "أورشليم الجديدة" عام 1904م ولعلهما أولى الروايات التي كتبت في مجال المقاومة بإبراز أهمية الإصلاح والنقد الذاتي، والبحث في أثر الصراع بين ذوات "الأنا الجمعي" من الطوائف والفئات والطبقات داخل المجتمع الواحد، وبهدف البحث عن "الهوية"..

ومنذ قرن مضى، انشغلت القريحة العربية بموضوع "الهوية"، هناك من تحمس إلى الإسلام كهوية، ومن رجح العربية، والبعض في مصر طالب بالمصرية، وتعددت الأطروحات والأفكار. والآن مع بدايات القرن الجديد (الحادي والعشرون)، تجددت

القضية. ليس في الأمر ما يدهش، هكذا الأمم والشعوب، مثل الأفراد عليها أن تتوقف وتتأمل أحوالها بين الحين والحين، إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

خصوصية الثقافة

ما سبق ليس هو القضية التي شغلت الجميع، انشغلوا أكثر بما يسمى "خصوصية ثقافة ما"، وكتب "أحمد أبو زيد" في "هوية الثقافة العربية".. وحدد الخصوصية بعدد من العناصر هي:

"**اللغة**".. حيث أن اللغة العربية لها أهمية خاصة مع العرب، وهى بالفعل عامل تماسك بين شعوبها. ولا يتنبأ الكاتب بانفصال اللهجات عن اللغة الأم كما حدث في القارة الأوروبية، فكانت الإنجليزية، والفرنسية والإيطالية وغيرها.. كلها عن اللاتينية.

"**الدين**".. إذا كانت العربية لغة القرآن، فان الإسلام هو الذي حمل العربية إلى مواقع فتوحاته الأولى.والدين هنا لا يلعب دور إتمام العلاقة بين الفرد وربه، أو هو أسلوب حياة فقط.. بل لعب الدين في الوطن العربي دوره في الربط بين أفراده والناطقين بالعربية. ولا إكراه في الدين، فوجود الطوائف والأديان المختلفة إلى جوار الإسلام، ليس إلا تعبيرا عن رحابة ذلك الدين وأهله، كذا تمتع سكان الوطن الكبير من غير المسلمين تعبيرا عن الحرية المتداولة فيما بين الجميع.

كما أن الدين الإسلامي يقدم نسقا ثقافيا متميزا تتحدد به: نظرة الإنسان إلى نفسه، مع ثنائية الروح والجسم، وأن الروح من أمر الله. وللجسد حرمته.. كما تتحدد نظرة الإنسان إلى الخالق وعلاقته به.. وأيضا نظرة الإنسان إلى الكون والكم المعرفي في القرآن عن الكون يستحق التأمل.

"**التراث**".. لقد تعاون الدين مع اللغة العربية في الحفاظ على كيان العالم العربي وهويته وثقافته خلال التاريخ العربي والإسلامي الطويل. ومازال يعيش فينا ذاك التراث القديم، ويعبر عن نفسه في الكثير من العادات والأفكار. والبعض يتشكك في رابطة

التراث تلك، فلم تتعرض اللغة أو الدين من تشكيك، قدر تعرض التراث، في كونه رابطة بين العرب. لذا يلزم الاعتراف بقدم وربما عدم جدوى بعض من ذاك التراث، إلا أن العربي أضاف إلى تجاربه الكثير بسبب التراث.

من الصعب عزل أية ثقافة أو أفكار خاصة بشعب أو جماعة، بمعزل عن بقية العالم، نظرا لثورة الاتصالات الهائلة الآن. وهذا الاتصال من الممكن أن يثرى الثقافات الخاصة. وربما لأن الغلبة للغرب فقد تخوف البعض واعتبرها غزوا ثقافيا. لكن الوعي بالقضية يعتبر سدا آمنا للجميع.

وهناك قضية وثيقة الصلة بالثقافة، ألا وهى: علاقة التعليم بالثقافة. فالتعليم يهدف في النهاية إلى إعداد الفرد للحياة لاجتماعية، يجب أن يكون النظام التعليمي متوائم مع المفاهيم والثقافة العامة للمجتمع، كما يجب أن يكون التعليم متطورا بحيث يواكب التطور. فالعلاقة متشابكة وهامة، والاتصال أفضل من الانفصال، وعلى رجال التعليم إعداد المواءمة المناسبة.

كما أن قضية التعريب والترجمة في القلب من قضايا الثقافة، ولا يمكن تصور تقدم ما، ما لم يلعب المترجم دوره في إضافة الجديد إلى الثقافة. هناك ترجمة المصطلحات العلمية، والتقنية، والفنية. وهناك ترجمة للمعلومات العلمية الموثقة. كذلك ترجمة للآثار الفكرية في كل بقاع الأرض. فمن الخطأ الظن أن الترجمة تنحصر في الغرب فقط.

الثقافة الإبداعية.. قصة وشعر ومسرح وغيره، فهي المعبرة عن التعريف السابق من أن الثقافة هي المعبرة عن جماع النشاط البشرى في بقعة ما. وليس أكثر تعبيرا عن ذاك النشاط إلا العمل الإبداعي. ومع ذلك هناك معوقات أمام تلك الثقافة الإبداعية، منها:

أن البيت العربي لا يلعب دوره الواجب والمنوط به، بتربية الذوق الغنى، والإحساس بالجمال، مع التنشئة الاجتماعية المناسبة. ربما بعض رجال الدين يقدمون بعض

التفسيرات حول النشاط الإبداعي، وتسئ إليه. كما أن أسلوب التعليم بالمدارس لا يحث على الإبداع، ويعتمد على التلقين والحفظ (حتى الان).

ولا يمكن إغفال الثقافة الشعبية، أو الشفهية، أو المتداولة بالسليقة والمتوارثة.. فهي من ملامح الثقافة الحقيقية لأي شعب من الشعوب. والشعب العربي له تعددية اللهجات والثقافات المحلية، إلا أنها في مجملها قد تكون محددة بأطر متفق عليها، وتحكمها رؤى مشتركة.. مثل الرؤى الدينية، ورسوخ بعض التقاليد الاجتماعية المتفق على أهميتها مثل الكرم.. وغير ذلك.

مع بدايات الألفية الثالثة حاصرتنا "العولمة"، لعل أهم الأسئلة: ماذا عن الهوية.. عن الذات الجمعية والانتماء الوطني والقومي.. في مقابل هذه الهجمة مجهولة المنبع والمصب؟!

أصبح مصطلح "العولمة" على درجة من الشيوع والانتشار بحيث يكفى الإشارة إليه لتتجدد الأسئلة.. هل هي نهاية التاريخ كما يقول "فوكوياما" الياباني؟ أم هي صدام الحضارات المتوقع كما يقول "صامويل هنتينجتون"؟ ولا إجابة إلا القول بأننا نعيش عصرا جديدا، بحيث يجب إلا ننشغل إلا بالبحث في المزيد من عوامل الربط من أجل المزيد من الانتماء بالقبض على قيم الهوية الأصيلة وتشييد البناء من جديد.

شاع مصطلح العولمة بالعقد الأخير من القرن العشرين، خصوصا بعد انهيار سور برلين، وسقوط الاتحاد السوفيتي، وقد شاع من قبل الشعار: "فكر عالميا ونفذ محليا". وتعمدت في القرن الجديد برسوخ عوامل محركة ودافعة، منها: ثورة التكنولوجيا والاتصالات، طبيعة السوق الجديدة مع اعتبار المواد الخام والمنتجة كلها ذات طبيعة دولية، سقوط نظرية الاقتصاد الموجه، مع تغير في خريطة ميزان القوى السياسية في العالم.

وبالقدر نفسه تخوف البعض من آثار العولمة، وهى تتمثل في اضمحلال دور الدولة الذي ينحصر في وضع السياسات، التخوف من التغييرات الاجتماعية المتوقعة عن سقوط وارتفاع اقتصاد الدول على حسب قدرتها على مواجهة أو التعامل مع

مفاهيم آليات السوق الجديدة، الخوف على شعار بيئة عالمية نظيفة، كما تتبدى بعض المخاوف الأمنية وظهور بذور جماعات إرهابية وغيره.

أما "الثقافة" وعلاقتها أو تأثرها بالعولمة فهو محور الارتكاز هنا. فسيطرة التكنولوجيا الفائقة ربما تخلق الانحلال الخلقي، التفكك الأسرى، العنف وأشكال جديدة من الجريمة، وربما الانتحار، أو بسبب زوال الفاصل بين الواقع الحقيقي والخيال، وربما لأسباب آخري.

أما وقد نوقشت تعريفات القومية أو الوطن بالمعنى المعاصر مع القرن الثامن عشر نظرا للمتغيرات الصناعية والاقتصادية، بينما كان مفهوم الهوية والانتماء مرتبطا من قبل بالنظر إلى الحاكم.. اتسع الأمر في القرن التاسع عشر مع اتساع التجارة العالمية كي يتضمن المفهوم (أي القومية) مفهوم الهوية الوطنية وبالتالي ارتبط بالمصالح الاقتصادية للدولة.

وإن تلاحظ مع بداية القرن العشرين تنبأ البعض بتلاشي القومية وهو ما جاء نقيضه على أرض الواقع.. بل رسخت أكثر عما قبل، خصوصا وقد كانت أحداث الحرب والاستعمار تعم العالم كله (وهو الدور التاريخي للمقاومة) وعلى الرغم من تعقد العلاقة بين القومية والوطنية، إلا أنه يبقى للوطنية تميزها الثقافي الذي يربط بين أفراد المجتمع المرتبطين برقعة أرض ما، أو بالوطن.. وبالتالي تأتى مفاهيم "الانتماء" و"الهوية" بما يؤكد الجانب العاطفي والشعوري لهؤلاء وهؤلاء.. في الوطن الواحد.

السؤال هو:

هل البحث عن الهوية الآن في مقابل كل التخوفات من العولمة يعتبر نقيض القول والفعل مع المتغيرات؟ أو دعوة للانغلاق في مقابل العولمة والانفتاح؟ الحقيقة أن الانتماء والوطنية هما جوهر الهوية. فالوطنية ثقة بالأنا الجمعية، لمجموعة تعيش على أرض مشتركة، يشعرون بالولاء والانتماء للأرض والالتزام بمجموعة المفاهيم الرابطة مع استيعاب لذاكرة جمعية تتمثل في جوهر العادات والتقاليد والقيم العامة .

كما أن الوطنية ليست التعصب ضد الآخر، ولا الغرور بالذات ولا الانغلاق على الذات، ولا هي دعاوى باطلة للاعتداء على الأخر. الوطنية هي محور الارتكاز لاستيعاب الماضي والانطلاق إلى المستقبل.. ولا نتصورها ضد العولمة، بل انفتاح على العالم بلا غرور ولا انبهار أو إحساس بالدونية. وبالتالي انفتاح على الإنسانية بكل مفاهيمها وأننا جزء من عالم أرحب. لذا فالمشاركة مع الآخر وبلا افتعال بالتشدق بمصطلحات أكبر هو جوهر العلاقة بين الهوية والعولمة.

كيف يمكننا الدخول في فعاليات العولمة والمشاركة الايجابية معها وفيها؟

وبصيغة أخرى: كيف تبدو المقاومة في مقابل المشاركة الايجابية مع الآخر؟

لا يتم ذلك إلا بعد التسلح.. بالوعي بملامح هذا العالم الجديد، ومفاهيمه وملامحه.. وأن نكون على أرض صلبة وواعية لأمراض العصر مثل الايدز كمرض بيولوجي، وأمراض السوق الحرة كمرض اقتصادي أو أية علة يجب التعامل معها. أن تصبح ثورة المعلومات إلى جانبنا وليست ضدنا، بالمشاركة في وسائلها التكنولوجية، والتأهيل العلمي والمعرفي لاستيعاب المعلومات والتعامل معها بموضوعية علمية للاستفادة منها بأكبر قدر وليس للوقوف أمامها بالرفض المطلق.

نحن في حاجة إلى آفاق للتعامل وللمعرفة قبل أي شيء آخر.. وفى كل الأحوال مسلحون بحب الوطن، بالانتماء الموضوعي الايجابي وليس العنصري، مع الاحتفاظ بمجموعة الثوابت القيمة العليا وخصوصا القيم الدينية. الهوية الواعية تضيف إلى الأفراد قوة دافعة للمشاركة الايجابية وليس العكس. كي تبقى مفاهيم المقاومة على أهبة الاستعداد، خصوصا مع شكل معركة مختلف عما كان طوال التاريخ الانسانى، وكذا أسلحتها وساحة التعارك آلت قد تبدأ بالأذهان أي الأفكار قبل الأفعال.

ولا يبقى إلا البحث الواعي لوسائل التحقيق والتنفيذ.. فلا شك إن للتعليم (المعلم والمناهج و العملية التعليمة) دوره، وأن للثقافة العامة والخاصة (بكل وسائل التثقيف) أهميتها. وفى إطار ذلك تتعاون كل وسائل مؤسسات الدولة/ الدول المتاحة والواجب إضافتها.. كل ذلك داخل إطار الفهم الصحيح الواعي ل"المقاومة". والمتابع لا يفصل

بتلك الحدية، فالفهم الصحيح للمقاومة يشارك في تحديد وتهذيب وسائل التنفيذ، واستيعاب الوسائل وتوجيهها الصحيح.

الهوية/ الوطن/ الأرض

ما هوية الوطن؟

هل الوطن هو قطعة أرض نعيش فوقها؟ الأرض وعليها من أحببناهم وأحبونا، أو حتى تعايشنا سويا ومعا، من أجل غد أفضل للجميع؟ أم ترى الوطن هو الأرض والناس معا، فتشكلت ملامحنا وعواطفنا بفعل الأرض والناس معا، فأسمينا الجوامع وطنا؟!

الأرض..

هي ذاك التعيين المكاني، تكتسب الدلالات والمعاني بما يتجاوز ملامحها المادية، فتكتسب بعدا روحيا وقيما عليا، حتى أن التحقق الإنساني ذاته لا وجود له دون ذلك الحضور الباقي دوما للأرض.

هي البقعة الإقليمية التي يكبر فوقها الفرد، فتغدو بذرة في الذات الفردية والجماعية.. ولا يبقى دونها إلا الفداء بالروح والدم. وما البذل من أجلها في "الصراع" إلا لأنها في "السلم" أعطت.

للأرض حضورها المميز في الإبداع منذ القدم، اهتم الشاعر العربي القديم بتصوير ديار الحبيب، وما تركته صور أطلالها.. كما تجلت بحضور مختلف. والآن يمكن أن نقول: أن الصراع من أجل الأرض ليس إلا دفاعا عن الذات بكل ما تتضمنه من معاني الوجود والحياة.

تبدت الأرض في الإبداع العربي والرواية خصوصا على أشكال عدة ورؤى مختلفة، وان اتفقت في مجموعها على أنها بمعنى ما الرحم والنماء. لقد نالت الأرض ما تستحقه في الإبداع الروائي خصوصا، بل وزادت عددا بعد نكبة 1948م في فلسطين.

الهوية/الوطن/المرأة

يبدو أن نضج الروائي لا يكشف عن نفسه من خلال التقنيات الفنية وحدها، وان تعلق البعض بالمقولة القديمة أن الموضوعات مطروحة على الطرقات. ففي لحظة تأمل لتلك الروايات التي تعاملت مع المرأة –وكثيرا ما يحدث، وربما الأفضل أن نقول نادرا مالا يحدث– تتضح رؤى الروائي ونضجه الفكري بدرجة رؤيته و تعامله مع المرأة في عمله الفني.

صحيح هناك من استفاد من المرأة لجذب الانتباه، مع بدايات الرواية. لكنه دوما تبقى الأعمال الأكثر نضجا التي جعلت من المرأة وسيلة للتعبير عن القيم العليا وهدفا من أجل حياة أفضل.

تم التناول الناضج للمرأة في الرواية بمرحلتين واضحتين، الأولى تلك التي كانت مع محاولات البحث عن النضج التقني و الفني لجنس الرواية نفسها. الثانية تلك التي بدأت مع نضج الرواية والروائي معا.

ففي المرحلة الأولى، بدا الوقوف إلى جانب المرأة معادلا للموقف في مواجهة سلبيات وفساد المجتمع والطموح إلى الأفضل. لذا كانت الروايات التاريخية التي جعلت من المرأة البطولة والشخصية المحورية.. كما في رواية "زنوبيا" للكاتب "سليم البستاني" وهى ملكة تدمر التي اعتلت كرسي العرش، حكمت وحمت وأدارت دفة أهل حضارة من أقدم الحضارات في العالم العربي والإنساني. كما كتب في الموضوع نفسه الكاتب "محمد فريد أبو حديد" في روايته "زنوبيا ملكة تدمر" عام 1941م أي بعد 69عاما من الأولى، وان كتبت الأولى إحياء للتراث.. كتبت الثانية كرد فعل لقضايا اجتماعية وسياسية كانت تموج بها الحياة الاجتماعية بمصر في حينه (وهذه الرواية تحديدا تعد المؤشر الأول لتأريخ المرحلة الناضجة الثانية)

وهناك روايتان تؤكدان وجهة النظر تلك التي ترى في نضج التعامل مع المرأة نضجا للكاتب، وهما "عذراء دنشواي/ للروائي محمود طاهر حقي عام 1906م" و"فتاة الثورة العرابية/ للروائي يوسف أفندي حسن صبري عام 1930م–والتي كتبت في 1903م". ففي الأولى غلب الموضوع حيث حادثة من أهم الأحداث الوطنية بمصر،

حيث ذروة الصراع مع المحتل الانجليزي. وان اعتمد الروائي على وثائق المحاكمة ولم يعمل فيها البناء الدرامي والصراع الداخلي الواجب في الرواية، إلا أنها من الأعمال الهامة تاريخيا، ويلحظ المتابع أن العنوان والمحتوى لم بهمل للمرأة دورها. أما الرواية الثانية فقد اعتمد الروائي بدوره على مذكرات الزعيم"أحمد عرابي" و جعل من جندي الخدمة أو الحراسة الخاصة به البطولة، حيث نسج خطا رومانسيا مع إحدى الفلاحات بقريته، وكان العنوان إشارة إليها.

قد لا يبرز للمرأة دورا بالمعنى العملي أو التقني بشكل مناسب، يكفى الإشارة الآن إلى قدر جدية الموضوع وعلاقته بالمرأة وهو أكيد في الروايتين المشار إليهما.

لعله من قبيل الإشارة فقط، يمكن سرد بعض تلك الروايات التي ماثلت الروايتين السابقتين بدرجة ما، ولمزيد من تزكية فكرة جدية وانتماء الروائي نفسه.. منها: "الفتاة الريفية/ محمود خيري- 1905م" و"زينب/ محمد حسين هيكل- 1913م" و"ثريا/ عيسى عبيد- 1922م".

ومع عقد الأربعينيات من القرن العشرين، بدا جليا ظهور جيل من الروائيين رسخت على أيديهم تقنيات جنس الرواية الادبى، ومنهم انتقلت إلى الرواية ورؤيتها للمرأة إلى مرحلة جديدة من مراحل الروائي العربي والرواية نفسها.

حظيت "المرأة" في الإنتاج الروائي العربي باهتمام الروائيين، إلا أن التوقف أمام أشكال تلك التناولات لم يلق الاهتمام الواجب، إلا من خلال الفحص العام للعمل الروائي نفسه، وليس بالنظر البانورامي المكثف عليها وحدها.

الهوية / الوطن / التاريخ

لعل التاريخ هو.. "الوعي بالذات الجمعي، من خلال التعرف على أحداث الأيام وردود أفعال الأجداد حيالها.. هو إذن الأحوال المادية المتحققة للكلمة المعنوية /الوطن".

ولأنه يضم البعد الزمان المكاني في التجربة الإنسانة، كما يضم فكرة الفعل ورد الفعل وفكرة الصراع، بات التاريخ نبعا من منابع الإلهام للفن والإبداع.. وكل أشكال

التعبير عن علاقة الفرد والجماعة مع بعضهم البعض، في إطار من الأوشاج السببية.

ظلت المعرفة التاريخية هي ملاحقة الملوك والسلاطين والأباطرة والقياصرة، حتى اتجهت في الدراسات التاريخية في القرن التاسع عشر نحو الشعوب في حياتها الاجتماعية والاقتصادية.. بعد الثورة الصناعية هناك. وقد بدت في الوقت نفسه الدراسات التاريخية من هلال المأثورات الشعبية عن تنوعها.. وهى التي أفرزت وبرزت فيها روح الشعوب، بينما بقيت الوثائق الرسمية للتاريخ من كتب وآثار ومخطوطات، مصادر باهتة.

وقد أكد البعض على أهمية الأعمال الفنية التاريخية، كما في يؤكد "جورج لوكا تش" على أهمية الرواية التاريخية تحديدا.. لأنها تفي بتوفير وجهة النظر التي تحسم القضايا العقائدية والسياسية. وهو قي ذلك يؤكد على معنى توظيف العمل الفني التاريخي إلى جانب "أدب المقاومة"، الذي هو أدب ترسيخ قواعد الوجود الانسانى الخير، أدب المدينة الفاضلة بمعنى ما، أدب الأنا الجمعية في سعيها إلى لتقوية ذاتها في مواجهة الآخر العدواني.

يخطئ من يعتقد أن التاريخي هو الفني المشاهد أو المقرئ، فالمبدع يلتزم بروح التاريخ لتوظيفه، ولا يصنع تاريخا أو إعادة لصياغته. المؤكد الآن أن "التاريخ" أصبح مادة لصناعة تاريخ الأمم وتشكيل مستقبلها، والعمل الابداعى يوثق علاقتنا بالماضي من أجل المستقبل، وهو بالضبط هدف أدب المقاومة. ويمكن أن نخلص إلى:

الأعمال الفنية التي تحاكى التاريخ وأحداثه فحسب، تعد ضعيفة من الجانب الفني.

الأعمال الفنية التي تستفيد من "روح التاريخ" هي التي تعنينا، حيث يعمل "الخيال " ويعيد نسيج الحياة والأحداث بفعل الرؤية الفنية وسحر الفن.

بداية يرى "زكى نجيب محمود": "لم تكن اللغة في ثقافة العرب "أداة" للثقافة، بل كانت هي الثقافة نفسها" ويقول "هربرت ريد": "اننى لعلى هلم بأن هنالك شيئا اسمه "التراث"، ولكن قيمته عندي هي في كونه مجموعة من وسائل تقنية يمكن أن نأخذها

عن السلف لنستخدمها اليوم ونحن آمنون بالنسبة إلى ما استحدثناه من طرائق جديدة؟"

تتعدد الآراء حول التراث.. حدد "حسام الخطيب" جملة ملامح مفهوم الحداثة في الأدب العالمي بعدد محدد، سردها وهو بصدد تصنيف المنتج الابداعى (نصوصا الرواية) من حيث علاقتها بالتراث، وهى: الصدق الفني في نقل مشاعر المبدع وتصوير تجربته– خاصية الرفض أو وضوح النزعات الوجودية– التركيز على العالم الداخلي وكشف أسرار النفس– الشعور بإشكالية المصير الانسانى والعجز في تفسير القضايا الكبرى– الشعور بالاغتراب الروحي– مع خاصية النسبية والتحرر من القواعد، على الأديب إلا أن يستعمل طريقته الأدبية

في المقابل هناك من الآراء من يرفض توصيف بعض الروايات بالروايات التراثية.. لأن الروايات التي قامت على التراث ليست إلا الشكل الناضج للرواية التاريخية، أو لعلها نسقا من نسقين في الرواية التاريخية:

النسق الأول هو أن ينتقل الروائي بكل أدواته للعمل في الزمن الماضي وبعث كذا الماضي من جديد، كما في أعمال "جمال الغيطانى" و"خيري عبدالجواد".

النسق الثاني في تلك الأعمال التي تبدو وكأن الروائي عفوا استلهم من التاريخ "واقعة" أو "شخصية" وغير ذلك. وهو ما وضح في رواية "حدث أبو هريرة قال" للروائي "محمود المسعدى".

ما يعنينا فيما سبق من اختلافات في الآراء ووجهات النظر فيما هو تراثي أو تاريخي، أن كليهما يعبر عن تفاعل الإنسان الفرد في جماعته، وتفاعل الجماعات فيما بينها، بحيث تتشكل الأحداث والأفعال التي هي إفراز "الوطن" الجامع/المظلة.

.. أورد "طه وادي" تصنيفا للكتابة التاريخية (في الرواية) أوضح فيها أن النصف الأول من القرن العشرين، كان امتدادا فكريا للقرن السابق من زاوية "الهوية".. فنشطت الكتابة الإبداعية التاريخية للدفاع عن الحاضر المستباح وصورة الماضي والمضيئة. وهو ما برز في:

الاهتمام بالكتابة العلمية للتاريخ.. من حيث هو علما له مباحثه وتفسيراته. ممن كتب فيها "عبداالسيرة.رافعي– محمد شفيق غربال– محمد عبدالله عنان– سيدة إسماعيل الكاشف.."

ازدهار كتابة فن السيرة.. والسيرة نوع أدبي بين التاريخي والأدبي، من كتابه "محمد حسين هيكل– طه حسين– عبدالقادر المازني .."

كتابة الروايات التاريخية.. وقد وضح اتجاهان، الأول استلهم من التاريخ الفرعوني أو المصري القديم "محمد عوض محمد– عادل كامل– محمود تيمور– نجيب محفوظ".. أما الاتجاه الثاني استلهم من التاريخ العربي الاسلامى "إبراهيم رمزي– محمد فريد أبوالحديد– على أحمد باكثير– طه حسين– محمد سعيد العريان– عبدالحميد جودة السحار– على الجارم"

ثالثًا: أدب المقاومة والحرية

ربما "الحرية" هي القضية التي نتعرف عليها وتثيرها نتائج بعض السلوكيات البغيضة.. أو هي حالة يستشعرها المرء/الشعوب مع غياب السيطرة التعسفية.. أو هي حالة ذهنية تبدو واضحة بأن يعمل المرء ما يريد أو يرغب.

إلا أنه يمكن تصور "الحرية" أحيانا على أنها قلة المقاومة أو "الكبح".. حينما يكون المرء تحت التهديد أو السيطرة.. سواء بالقيود أو الأصفاد أو أسوار السجون وسترات المجانين وغيرها. لكن السيطرة السلوكية أو الكبح بواسطة ظروف التعزيز فهي أمر مختلف.

في النهاية "الحرية" هي التي تكسب بعض الأفراد "الصلاح" لأن الشخص الصالح هو الذي يسلك سلوكا جيدا بينما في إمكانه أن يسلك سلوكا آخر. وهى التي تخلق عالم يكون "العقاب فيه أقل شيوعا، حيث تتولى الحرية الأمر في دخائل الأفراد (وهى الحرية المسئولة عند الأنا تجاه الآخر الحاضر/الغائب).

بين الحرية والعدوان تأتى المقاومة، فلا مقاومة مدعمة بمفاهيم الحرية، ولا حرية حقيقية قادرة على تأكيد ذاتها إلا بكل أسلحة المقاومة.. بداية مما تضمره النفوس والمواجهات الكلامية حتى الحروب.

لعل أهم ملامح "أدب المقاومة" هي: التعبير عن الذات الجمعية والهوية.. أدب الوعي والتخلص من الأزمات (اضطهاد–قهر–حروب..) كما يتسم بالسعي لمعرفة الآخر العدواني وكشف أخطائه وأخطاره.. هو الأدب المعبر عن الذات والوعي بالذات الجمعية.

ماذا عن الجهاد؟

أما الإسلام فقد بدأ مع قوله تعالى: "وأصبر لحكم ربك فانك بأعيننا" سورة الطور، آية 48، كذلك: "فاصفح الصفح الجميل" سورة المؤمنون"، آية 196.

هذا ما كان في الفترة الأولى من الرسالة (المكية)، أما في الفترة الثانية(في المدينة)، فقد تقرر القتال حين يطبق الأعداء: "أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وان الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله.."سورة الحج، آية39،40،41

وفى السنة الثانية من الهجرة تقرر الإذن بالحرب: "كتب عليكم القتال، وهو كره لكم..."سورة البقرة، آية126

استخدم الإسلام مصطلحا آخر هو "الجهاد" بدلا عن "الحرب"، إلا أن الإسلام وضع ضوابطه وحدوده في مجال الجهاد.. كأن جعل الجهاد في مجالين:

المجال الأول: وضحته الآية: (انه مجال الفرد والوطن للدفاع عن النفس والعرض والمال.)

"وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلوكم. ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين" سورة البقرة آية110

أما المجال الثاني: (لم يأذن الإسلام بالجهاد إلا دفعا للعدوان وحماية للدعوة الإسلامية).

"وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلوكم، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين.." سورة البقرة "آية 190"

القواعد المنظمة للجهاد، وهي في مجملها:

"قتال الذين يبدؤون بالعدوان والمعتدين".. لا يجوز مقاتلة من لا يبدؤون بالعدوان، لأن الله تعالى حرم الظلم.. في الجهاد حرب مشروعة وغاية تنتهي إليها.. وهو ما تنظمه القواعد التالية:

(أثناء المقاتلة.. إن جنحوا للسلم على المسلم أن يجنح لها، مع عدم قتل النساء والأطفال والشيوخ المقعدين.. الإكراه ليس وسيلة للدعوة في الدخول إلى الدين.. كما نهى الرسول (صلع) قتل الرهبان مثلما نهى قتل النساء والأطفال)

وبذلك يكون الإسلام قد سبق كل المواثيق التي عرفتها البشرية وسعت إليها المجتمعات الحديثة في مجال التشريع والقانون الدولي.

(شروط المسلم المجاهد أن يتسلح بـ: "الإيمان الكامل في قلب المسلم المجاهد.. إعداد العدة الواجبة والاستعداد المناسب للجهاد.. أخذ باب الحذر عند ملاقاة العدو، ثم الثبات عند بدأ المعركة.. وهو ما عبرت عنه الكثير من الآيات القرآنية ومنها:

"وجاهدوا في الله حق جهاده" سورة الحج ، آية 78

"وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل، ترهبون به عدو الله وعدوكم" سورة الأنفال آية60

"يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعًا" سورة النساء آية 71)

(كما قنّن سلوك المجاهد.. الثبات في ملاقاة العدو، استخدام الحيلة والخداع، السماح بالفرار من التهلكة حفاظا على النفس، والرحمة في الحرب أثناء المقاتلة، وبعد أن ينتصر المسلمون مع تنفيذ عقود الذمة وحسن معاملة الأسرى).

واضح أن الإسلام تعامل مع فكرة الحرب، على أنها شر لابد منه وكره للمؤمنين. وان لم تذكر كلمة "جرب عادلة"، إلا أنها عادلة في جوهرها (في الإسلام).. من حيث الأسباب، والممارسات، وبعد أن تضع أوزارها.

ومع تلك الوقفة السريعة لفهم الفارق المصطلحي بين "الحرب" و"الجهاد"، هناك عدد من الحقائق والواجب أن يعلمها المسلم وغير المسلم، فهي رؤية إنسانية عامة:

*أن الحرب والجهاد معا يعبران عن صورة الصراع البشرى قبل الإسلام وبعده..

رابعا: أدب المقاومة والانتماء

يعد مصطلح "الانتماء" من أكثر المصطلحات ذات الصلة بموضوع "الوطن" وبالتالي المقاومة. ليس فقط للدلالة المباشرة الشائعة، حيث يعنى الوفاء/ الإخلاص/ المشاركة الايجابية.. الخ، وكلها معان ذات مغزى أخلاقي، تعنى التفاعل بين الفرد وجماعته (فى الوطن).

قد يعنى الانتماء: انتماء الفرد لجماعة معينة، والعمل بجد وإخلاص من أجلها، مع تقديم كل التضحية الواجبة تجاهها، إلى حد بذل الدم إن لزم الأمر. لذا يعتبر الإنتماء قوة دافعة فى ذاته، حيث يصبح ذات دلالة معنوية ومادية.. أي أن الانتماء فكرة ومنجز، روح وسلوك معا. وغالبا ما يتداخل معنى الانتماء مع دلالة أخرى ذات علاقة، مثل دلالة "الإلتزام"، حيث تصبح مفاهيم الجماعة وقوانينها وقيمها هي المعيار الذي يلتزم به المرء وينفذه، دون إجبار.. و"الإلتزام" هو المصطلح الذي شاع فى بلدان النظم الشمولية مثل "الاتحاد السوفيتي القديم".

يوصف المنتمي ببعض الصفات الايجابية: التخلص من الذاتية الفردية والأنانية.. والرغبة فى تقديم الخدمات لغيره دون انتظار مقابل ما.. ثم الإحساس بالرضي وبالسعادة حين مشاركة الجماعة وخدمتها.. والميل نحو الجماعة فكريا وقيميا، وبذلك يصبح الفرد متكيفا مع الجماعة.

وقد فسر الكثيرون الانتماء على أنه (فطرى)، حيث أن الإنسان ضعيفا بطبعه وفى حاجة إلى الآخر/ الجماعة كي يشعر بالاطمئنان.. كما أن الذات الإنسانية لا تتحقق إلا من خلال علاقتها بالخارج حيث الجماعة. أضاف البعض أن وجود "قضية" يزيد من الانتماء.

فسر العلماء ظواهر التضحية والفداء حتى الإستشهاد من أجل الأوطان فى مواجهة العدوان، بسبب الانتماء. وتتحقق الذات بالانتماء والولاء لقضية الجماعة، كما يعبر الانتماء عن نفسه بالفناء فى القضية أو المشروع العام الجامع لأفراد الجماعة.

لذلك، يلزم الإشارة إلى أن "الانتماء"، فى حاجة إلى إضافة حقيقية موضوعية، وفى حاجة إلى تهذيب وتوجيه أو إلى "تربية".. أي أن الانتماء فى حاجة إلى الصقل بالخبرات اليومية المضافة والتدريب. فتكون البداية بتحديد قضية/ قضايا الجماعة، والتدريب على حب الجماعة وقبولها بكل تناقضاتها. فعلاقة الفرد بالمجتمع هامة في تحديد حريته وفى التماسك الاجتماعي نفسه. ولأن مسألة الوحدة الوطنية قضية هامة ومصيرية، فان موضوع "الانتماء" من أهم الموضوعات الواجب تزكيتها دوما في مجال الحديث عن "الوطن" والمواطنة، وبالتالي حب الوطن وحمايته والدفاع عنه إلى حد الفناء من أجله.

ضرورات الانتماء

- ضرورة وطنية، فهو يعمل على تزكية وتنمية الإحساس بالانتماء وبالهوية.
- ضرورة اجتماعية.. فهو يعمل على تزكية بعض المعارف والقدرات والقيم والاتجاهات.

تعريف "الانتماء"

الانتماء لغويا

فى العربية: ن م ى= نمى المال (بالفتحة)- جاء من باب "سما"- منها "نمى الحديث إلى فلان" أي أخبره أو أسنده له.

وانتمى= أي انتسب.. (معجم مختار الصحاح)

الانتماء= هو الانتساب إلى..

فى الانجليزية: انتماء= Belong (تعني يخص- ينتسب إلى- ينتمي إلى- يسكن- يلائم)، منها Belongingness= تعنى الانتماء.. (Pocket Dictionary)

تعريف الانتماء فى علم النفس

يعنى مفهوم الانتماء عند علماء النفس باعتباره من الحاجات النفسية للفرد، وهى وجهين:

- أن الانتماء.. حاجة ترتبط بالعمليات الفسيولوجية الكامنة فى المخ، وتستثار داخلياً أو خارجيا ، فتؤدى إلى نشاط من جانب الكائن ويستمر النشاط حتى يتغير الموقف.

- رؤية أخرى: أن الانتماء، حاجة من الحاجات الظاهرة التي تعبر عن نفسها فى السلوك الحركي، كما أنها تعمل فى إطار الجماعة ولا تعمل منفردة.

وإن اشتركت الرؤى كلها إلى أن الانتماء حاجة اجتماعية، بتلك الرؤية النفسية يعتبر الانتماء من العوامل الهامة التي تساعد على تماسك الجماعات والأفراد، وتزيد من استقرارهم. إن إشباع الحاجة إلى الانتماء، يؤدى إلى استقرار الجماعات وتنظيماتها المختلفة.

تعريف الانتماء فى علم الاجتماع

ورد في معجم العلوم الاجتماعية أن الانتماء هو: "ارتباط الفرد بجماعة؛ حيث يرغب الفرد في الانتماء إلى جماعة قوية يتقمص شخصيتها ويوحد نفسه بها مثل الأسرة أو النادي وغيره".

كما يعرف الانتماء اجتماعيا بأنه: "النزعة التي تدفع الفرد للدخول في إطار اجتماعي فكري معين، بما يقتضيه هذا من التزام بمعايير وقواعد هذا الإطار، وبنصرته والدفاع عنه في مقابل غيره من الأطر الاجتماعية والفكرية الأخرى"..

ولما كان الانتماء الفكري يتجاوز بمضمونه كل الحالات الأخرى، والتواصل على هذا

الأساس له جذوره وقوته أكثر من حالات أخرى.. حيث يشعر الفرد برابطة ذهنية ووجدانية مع جماعته المتوافق معها فكريا (التي تتمثل فى مجموعة القيم العقائدية والقيم العليا): هو ما دفع البعض إلى وصف الانتماء بأنه: شعور بالترابط وبالتكامل مع المحيط الذي يعيش الفرد داخله ويتفاعل معه، مما يجعل الانتماء أساس الاستقرار النفسي والاجتماعي معا.

ورد في معجم العلوم الإجتماعية أن الانتماء

"هو إرتباط الفرد بجماعة؛ حيث يرغب الفرد في الانتماء إلى جماعة قوية، يتقمص شخصيتها، ويوحد نفسه بها مثل الأسرة أو النادي أو الشركة. ولعل أنقى حالات الإنتماء وأرقاها، الإنتماء الفكري والذي يتجاوز بمضمونه كل الحالات الأخرى، والتواصل على هذا الأساس له جذوره وقوته أكثر بكثير من الحالات الأخرى. الإنتماء هو شعور بالترابط وشعور بالتكامل مع المحيط، الانتماء أساس الاستقرار".

وهو "السلوك المعبر عن امتثال الفرد للقيم الوطنية السائدة في مجتمعه، كالاعتزاز بالرموز الوطنية، والالتزام بالقوانين والأنظمة السائدة، والمحافظة على ثروات الوطن وممتلكاته، وتشجيع المنتجات الوطنية، والتمسك بالعادات والتقاليد، والمشاركة في الأعمال التطوعية، والمناسبات الوطنية، والإستعداد للتضحية دفاعاً عن الوطن"

إن الشعور بالإنتماء الوطني من أهم دعائم المجتمع، والذي يحافظ عل استقراره ونموه، ما يعبر عن نفسه ب: (المشاركة الإيجابية في أنشطة المجتمع.. الدفاع عن مصالح المجتمع.. الشعور بالفخر بالانتماء لهذا المجتمع.. المحافظة على ممتلكات المجتمع.. وأساس الانتماء هو مشاركة سكان المجتمع وحث الآخرين على التعاون معهم لمواجهة المشكلات ووضع البرامج المناسبة لمواجهتها).

يعدّ مفهوم الانتماء الوطني من أهم المفاهيم المركزية التي تحدد طبيعة علاقة الفرد بالجماعة في كل زمان ومكان يقابله على الضد تماماً مفهوم الاغتراب. والحقيقة أن البشر يوصفون بكونهم كائنات إجتماعية، مخلوقات تتجمع سوياً ويعتمد كل منها على الآخر جسمياً أو نفسياً.

تعريف عام للانتماء

"النزعة التي تدفع الفرد للدخول في إطار اجتماعي فكري معين، بما يقتضيه هذا من التزام بمعايير وقواعد هذا الإطار وبنصرته والدفاع عنه في مقابل غيره من الأطر الاجتماعية والفكرية الأخرى"

وفى هذا الربط بين الانتماء والتماسك الإجتماعي، قال "لويس كامل مليكه":

"إن الإنتماء من المفاهيم التي تقترب من مفهوم التماسك، والتماسك يعنى القوة التي تعمل للتأثير على أعضاء كل جماعة ليستمروا بداخلها"..

.. وفى المقابل يرى علم النفس، أنه لكي يسهم أفراد المجتمع فى تحسين أحوال مجتمعهم، لابد أن يتوفر لديهم الشعور الكامل بالمسئولية الاجتماعية، ولن يتوفر ذلك إلا إذا كان شعورهم بولائهم لمجتمعهم قويا.. وعلى العكس فان الخدمة المجتمعية تلعب دوراً عكسياً أيضا، وتعزز من انتماء الفرد داخل الجماعة/ المجتمع. إن دور الخدمة الإجتماعية فى تنمية الشعور بالانتماء، يعتبر هدفا من أهدافها، لأن من أهداف عملية تنظيم المجتمع هو تنمية دوافع الإنسان نحو الاعتزاز بالانتماء إلى جماعة والإحساس بالمسئولية نحوها، وبالتالي الشعور بالرضا النابع من سلوك التعاون بين الفرد والجماعة وبالعكس.

أبعاد الانتماء

يعد مفهوم الانتماء مفهوماً مركباً ولابد من دراسة أبعاده حتى يتم التمكن من معرفة هذا المفهوم المركب، وتتلخص أبعاد الانتماء فيما يلي:

الهوية.. يسعى الانتماء إلى توطين الهوية والهوية هي المقابل على وجود انتماء حيث تظهر سلوكيات الفرد كمؤشرات للتعبير عن الهوية وبالتالي الانتماء.

الجماعة.. الروابط الاجتماعية تؤكد الميل نحو الجماعات حيث تتوحد مجموعة حول هدف واحد أو عدة أهداف تصبو هذه الجماعة إلى تحقيقه وبهذا الانتماء دخول هدف الجماعة.

الولاء.. وهو جوهر الالتزام ويدعم الهوية الذاتية ويقوى الجماعية ويركز على المسايرة ويدعو تأييد الفرد لجماعته ويشير إلى مدى الانتماء إليها.

الالتزام.. حيث التمسك بالنظم والمعايير الاجتماعية وهنا تؤكد الجماعة على الانسجام والتناغم والإجماع ولذا فإنها تولد ضغوطاً فاعلة نحو الالتزام بمعايير الجماعة.

التواد.. وتعني الحاجة إلى الانضمام والعشرة وتكوين الروابط الاجتماعية والعلاقات بين أفراد الجماعة بعضها البعض.

الديمقراطية، هي أساليب التفكير والقيادة، وتشير إلى الممارسات والأقوال التي يرددها الفرد ليعبر عنها بعدة عناصر منها:

أ) تقدير الفرد وإمكاناته مع مراعاة الفروق الفردية.

ب) شعور الفرد بالحاجة للتعاون والتفاهم مع الغير.

ج) اتسام الأسلوب العلمي في التقليد.

الانتماء الوطني..

إن الصفة المكتسبة "المواطنة" مرتبطة أيضا بتفاعل الجهات الإدارية بالعمل الواعي من أجل تحقيق هدف إكساب المرء صفة "المواطنة".. حيث تتمثل أهمية تربية المواطنة في أنها:

– تدعّم وجود كيان قوى متماسك يسمى "الدولة"، مدعم بالأسانيد والقانونية المنظمة.

– تنمّية القيم المجتمعية الايجابية التي تتسم بالمشاركة والتفاعل، مثل التكافل والديمقراطية.

– تكسب المرء مهارة اتخاذ القرارات، وإمكانية الحوار والاقتناع بالتفاهم والفهم، مع احترام الحقوق والواجبات له ولمن حوله.

مع ضرورة الإشارة هنا إلى أهمية تزكية صفة المواطنة منذ مرحلة الطفولة قبل مرحلة الشباب، وهو ما يفرز شابا مستعدا لاكتساب صفات المواطنة، وهو الرأي الذي

قال به المفكر التربوي "ناريان" (2004م) "أهداف تعليم المواطنة"، بأن يتم تدريب الطفل على برامج تساعده على تحقيق التالي:

- أن يكونوا مواطنين مطلعين وعميقي التفكير يتحلون بالمسؤولية، ومدركين لحقوقهم وواجباتهم.
- تطوير مهارات الإستقصاء والإتصال.
- تطوير مهارات المشاركة والقيام بأنشطة ايجابية ومسؤولية.
- تعزيز نموهم الروحي، والأخلاقي، والثقافي، وأن يكونوا أكثر ثقة بأنفسهم.
- تشجعهم على لعب دور إيجابي في مدرستهم وفي مجتمعهم وفي العالم.

تعريف الانتماء الوطني Affiliation National

الانتماء بمفهومه البسيط المباشر يعني الارتباط والانسجام والإيمان مع المنتمي إليه وبه، وحينما يفتقد الانتماء لذلك فهذا يعني أن به خللاً ما، هذا الخلل يسقط صفة الانتماء. الانتماء الوطني كمفهوم ينتمي إلى المفاهيم النفسية الإجتماعية، ويعني الاقتراب والاستمتاع بالتعاون أو التبادل مع آخر. يبرر علم الاجتماع الدافع إلى الانتماء بما يسمى ب (الجوع الاجتماعي) إذا توافر لدي الفرد، مع الوازع الديني بكل قيمه التي ترسخ للعلاقة بين الفرد والآخر فى المجتمع.. يبلغ المرء من القوة أنه يستطيع أن يعدل كثيراً من سلوكه، ويصبح سلوكه مطابقاً لما يرتضيه مجتمعه. إن الفرد داخل الجماعة، مطالب في كثير من الأحيان، بالتضحية بكثير من مطالبه الخاصة ورغباته، حتى ينال الشعور بالرضي بأنه على طريق تعاليم دينه، وبالتالي الشعور بالقبول الاجتماعي. هذا القبول يجعله متوحداً مع الجماعة ومتوافقا معها، وكأنها امتداد لنفسه يسعى من أجل مصلحتها ويبذل كل جهد من أجل إعلاء مكانتها ويشعر بالفوز إذا فازت أو بالأمن كلما أصبحت آمنة.

والانتماء الوطني فى المجتمع، يعتبر من أوضح نماذج التوحد مع المجتمع، حيث يلاحظ تأثير شخصية الجماعة على شخصية الفرد، وتطابق شخصيته مع النمط الثقافي السائد.

أهمية الانتماء الوطني

قد يتناول البعض الانتماء الوطني فى ذاته بعيدا عن كونه ضمن مجموعة من الانتماء.. اتفق الجميع على أهمية الانتماء الوطني على المستوى الاجتماعي.

الانتماء ومصطلحات ذات علاقة في معنى الولاء للوطن

الولاء والحب هو لله، ويجيء الولاء لكل ما نحبه من بعد، بما لا يتعارض مع الاعتبار الأول أو يناقضه، ومن ثم "ولاء الوطن" هو:

هو "محبة الوطن ونصرته والذود عنه، والانصياع لقوانينه وضوابطه وقيمه، وطاعة ولاة الأمر ومشورتهم، بما تهبه وتنظمه الضوابط الشرعية".

أما الانتماء والانتساب للوطن هو:

هو "رغبة واعتزازا بالانضمام إليه، والتضحية من أجله وفق الضوابط الشرعية، تضحية نابعة من مشاعر الولاء والحب".

وعليه فان الانتماء وأصحاب الولاء للوطن.. يتسمون بالسلوك والعمل الجاد الدءوب من أجل الوطن، والتفاعل مع أفراد المجتمع من أجل الصالح العام.

عوامل نقص الولاء

- أن تكون التنشئة الأولى فى الطفولة، لا تؤهل الصغير ولا ترشده إلى القيمة المطلوبة. لأسباب ترجع إلى نقص تأهيل عند الأبوين أو أحدهما، وربما البيئة نفسها غير معضدة لتأهيل الصغير مثل البلاد البعيدة عن البيئة العربية، وتنشئة الصغير ببعض المدارس غير الحريصة على التنشئة القائمة على القيم الإسلامية والعربية.
- قد يلعب نقص التثقيف والإرشاد العام من دور سلبي، حيث يلجأ المرء إلى رفقاء غير المؤهلين وربما يحملون نزعات عدوانية للبلاد، هذا بالإضافة إلى ضعف البرامج الإرشادية والخطط الهادفة لتنمية الشعور بالولاء للوطن، وهى تقع على عاتق وسائل الإعلام أن تنشط في خدمة هذا الهدف النبيل.
- أما غياب أو تغيب القيم العليا، كالعدالة الاجتماعية وسيادة القانون والمساواة بين مختلف شرائح المجتمع، تلعب أيضا دورا سلبيا، وهو ما قد تصيب البعض بالشعور بالاغتراب.

الانتماء والمواطنة

الوطنية: تأتي بمعنى حب الوطن، ذلك المكان الذي ولد على أرضه وعاش، وتعامل مع أهله وناسه، ثم مارس مع الجميع واجباته وحصل فيه على حقوقه، بناء على رابطة وميثاق غليظ فى وجدان الجميع من الأحكام والشرائع والمشاعر الدينية، واعتمادًا على المشترك بين الجميع ألا وهو رابطة الوطن.. ومنها كانت مشاعر المواطنة.

مصطلح يستخدم للدلالة على المواقف الإيجابية والمؤيدة للوطن من قبل الأفراد والجماعات..

المواطنة: هي الانتماء إلى مجتمع واحد يضمه بشكل عام رابط اجتماعي وسياسي وثقافي موحد في دولة معينة. وتبعا لنظرية "جان جاك روسو" "العقد الاجتماعي": المواطن له حقوق إنسانية يجب أن تقدم إليه وهو في نفس الوقت يحمل مجموعة من المسؤوليات الاجتماعية التي يلزم عليه تأديتها. وينبثق عن مصطلح المواطنة مصطلح "المواطن الفعال" وهو الفرد الذي يقوم بالمشاركة في رفع مستوى مجتمعه الحضاري عن طريق العمل الرسمي الذي ينتمي إليه أو العمل التطوعي، ونظرًا لأهمية مصطلح المواطنة تقوم كثير من الدول الآن بالتعريف به وإبراز الحقوق، التي يجب أن يملكها المواطنين كذلك المسؤوليات التي يجب على المواطن تأديتها تّجاه المجتمع فضلا عن ترسيخ قيمة المواطن الفعال في نفوس المتعلمين.

في القانون يدل مصطلح المواطنة على وجود صلة بين الفرد والدولة. بموجب القانون الدولي المواطنة: "هي مرادفة لمصطلح الجنسية، على الرغم من أنه قد يكون لهما معان مختلفة وفقا للقانون الوطني. والشخص الذي لا يملك المواطنة في أي دولة هو عديم الجنسية".

يذهب الباحثون في علم الاجتماع إلى تعريف "المواطنة" في المجتمع الحديث على أنها: "علاقة اجتماعية تقوم بين الأفراد والمجتمع السياسي (الدولة)؛ إذ تقدم الدولة الحماية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية للأفراد، عن طريق القانون والدستور الذي

يساوي بين الأفراد ككيانات بشرية طبيعية، ويقدم الأفراد الولاء للدولة ويلجأون إلى قانونها للحصول على حقوقهم"

هذا التعريف يعد نمطياً من الناحية النظرية، يتسم بكونه إجرائي منهجي، يتيح دراسة المواطنة وقياسها وتحديد مستوياتها والتنبؤ بأبعادها وآفاقها وتقييم وتقويم أدائها في أي مجتمع.

فهذا التعريف يتضمن ما يعرف ب "العقد الاجتماعي" وهى الآلية الخفية/ الظاهرة بين أفراد المجتمع بالتعاطف والتراحم، وتزكيها أحكام الشريعة السماوية.

وتتميز المواطنة بنوع خاص من ولاء المواطن لوطنه، وخدمته له في السلم والحرب، وفى الشدة والرخاء. وهو ما يتبدى فى التعاون بين المواطنين عن طريق العمل المؤسسي والفردي الرسمي والتطوعي من أجل تحقيق الأهداف العامة لصالح الجميع.

ولأن الحكومات هي المسئولة عن ترسيخ الشعور بالمواطنة، فإن أي إخلال بشروط العقد، مثل: عدم تأمين الحماية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للأفراد.. أو عدم المساواة بينهم، وهو ما يضعف مشاعر المواطنة.

صور الانتماء

يبدو الانتماء للوطن، وكأنه مزيج من، ونتيجة لعدد من الانتماءات، هي:

أ) الانتماء إلى العقيدة، وهو ما يعنى أن الانتماء هنا هو الانتساب والولاء والرابطة للعقيدة. ويعتبر هذا النوع من الانتماء من أهم وأشد أنواع الانتماءات. وتلاحظ أن انتماء العقيدة عرفته البشرية قبل الرسالة النبوية الشريفة بالإسلام. وقد تجلى فى عدد غير قليل ورد ذكره فى القرآن الكريم.

ب) الانتماء إلى الأخلاق.. تعتبر الأخلاق هي مجمل السلوك وطرق التعامل بين الناس، وكلما صلحت وعبرت عن الصالح والخير بينهم، كلما كان المجتمع فى أمن وسلام ومحبة.. وكلما زاد الانتماء الوجداني والنفسي بينهم.

ج) الإنتماء اللغوي.. لعله من ركائز الانتماء الجامع بلا جهد، وهو ما قد يجعل البعض غي منتبها إلى أهميته، خصوصا أن الله جعل العربية هي لغة القرآن الكريم، لذا تعد ركيزة للانتماء صلدة وفاعلة،

د) الإنتماء العاطفي.. انه ذلك الانتماء الجامع الباطني الشعوري الخفي الظاهر، ولا يتأتى إلا بقناعة عند المرء عن الإنتماءات الأخرى.

ذ) الانتماء الاجتماعي..هو الشعور بالانتماء للمجتمع، ويعتبر من أهم دعائم المجتمع، ويتبدى من خلال الاتى:

– المشاركة الإيجابية في أنشطة المجتمع، الدفاع عن مصالح المجتمع، الشعور بالفخر والاعتزاز بالانتماء للمجتمع، المحافظة على ممتلكات المجتمع، وكل هذه المؤشرات.

لذلك يعد مفهوم (الانتماء الاجتماعي) واحداً من أهم المفاهيم التي تحدد طبيعة علاقة الفرد بالجماعة. وبالتالي فان حاجة الفرد للآخرين تكمن في مساعدته على حل مشاكله فيشعره بالأمن ويزيدوا من إحترامه لنفسه.

وكما الفرد للجماعة، تصبح الجماعة راعية وحريصة على الفرد فى الوطن، وبالتالي فالفرد يجنى الكثير من انتمائي الاجتماعي:

– تحقيق الرغبات الشخصية والاجتماعية التي يعجز الفرد عادة عن تحقيقها بمفرده.

– الشعور بالإنتماء إلى جماعة تتقبله ويتقبلها فيشعر بالأمن والطمأنينة.

– يمكن تغيير سلوك الفرد عن طريق الجماعة، فكل جماعة لها معاييرها وقيمها التي يتحتم على الفرد المنتمي إليها اكتسابها.

– يتمكن الفرد عن طريق انتمائه للجماعة من اكتساب الميراث الثقافي الذي يمكنه من التفاعل ايجابياً مع أفراد مجتمعه.

– كما تساعد الجماعة الفرد على ممارسة أنواع من النشاط، يستغل فيه قدراته ويكتشف قدرات أخرى.

س) الانتماء الأسرى .. تلعب الأسرة دورًا بالغ الأهمية في إعداد الفرد وتأهيله للقيام بأدواره ووظائفه داخل النسق الاجتماعي، حيث تمثِّل الأسرة أولى المؤسسات الاجتماعية التي تحتضن الطفل، الذي هو الشاب ورجل وامرأة المستقبل، منذ اللحظات الأولى لخروجه إلى الحياة وخلال كافة مراحله العمرية.

إن وظيفة الأسرة التربوية، وخاصة فيما يتعلق بعمليات التطبيع الاجتماعي والتنشئة الاجتماعية، ومنح الشعور بالحب والانتماء لا تزال هي الوظيفة الأساسية التي لا يمكن لأي مؤسسة أخرى للقيام بها، خاصة بالنسبة للسنوات الأولى في عمر الطفولة، والتي لا تتجاوز فيها دنيا الطفل حدود أسرته.

يصنف الانتماء إلى:

أ) انتماء حقيقي: يكون الفرد فيه على تفهم لأبعاد الموقف والظروف المحيطة بوطنه داخلياً وخارجياً ويكون مدركاً لطبيعة مشكلات وقضايا وطنه مما يمكن من اتخاذ قرارات واعية غير آنية.

ب) انتماء زائف: وهو ذلك الانتماء المبني على معارف زائفة ولا وعي للموقف الذي يتعرض له وطنه وتشويه في واقع الحقيقة.

ج) انتماء لفئة بعينها، دون الآخرين حتى ولو كانت خاطئة.

وكون الانتماء للوطن هو العماد الفقري للجماعة وبدونه تفقد الجماعة تماسكها، بينما تماسك الجماعة هو انجذاب الأعضاء لها والذي يتوقف على مدى تحقيق الجماعة لحاجات أفرادها، فطالما الجماعة تحقق حاجات الفرد فيمكنها أن تؤثر على أفكاره وسلوكه عن طريق:

- تحقيق الرغبات الشخصية والإجتماعية التي يعجز الفرد عادة عن تحقيقها بمفرده.
- الشعور بالانتماء إلى جماعة تتقبله ويتقبلها فيشعر بالأمن والطمأنينة.
- يمكن تغيير سلوك الفرد عن طريق الجماعة، فكل جماعة لها معاييرها وقيمها التي يتحتم على الفرد المنتمي إليها اكتسابها.
- يتمكن الفرد عن طريق انتمائه للجماعة من اكتساب الميراث الثقافي الذي يمكنه

من التفاعل ايجابياً مع أفراد مجتمعه.

– تساعد الجماعة الفرد على ممارسة أنواع من النشاط، يستغل فيه قدراته ويكتشف قدرات أخرى..

تصنيف آخر للانتماء..

وحسب هذا المفهوم تتعدد محاولات تصنيف الانتماء على النحو التالي:

1) تصنيف حسب الموضوع (الانتماء للعقيدة – الأسرة – الوطن).

2) تصنيف نوعي (مادي يعتبر الفرد عضو في الجماعة، ظاهري يعبر عن مشاعره لفظياً، إيثاري يعبر عن الموقف الفعلي).

3) تصنيف حسب طبيعته (إما قبل عضوية الفرد في الجماعة– أو بعد عضويته فيها)

4) تصنيف في ضوء السوية (سوي يتفق مع معايير الجماعة– وغير سوي يتخذ مواقف عدوانية منها).

5) تصنيف كيفي (شكلي بحكم العضوية تحت تأثير الجنسية واللغة، وموضوعي حقيقي يدرك الفرد فيه حقائق الواقع ويكون فيه مشاركاً، زائف حيث الرؤية غير الحقيقية للواقع)..

الانتماء الوطني والانتماء السياسي Political Affiliation

مع شيوع التنظيمات السياسية في القرن العشرين الميلادي، نظرا للكثير من العوامل والأسباب، مثل الحروب والحربين العالميتين تحديدا، والرغبة فى التحرر من براثن الاحتلال الذي كان سائدا في اغلب دول العالم.. وغيرها. وهو ما انعكس على السياسات الخارجية والحكومات، بحيث أصبح الانتماء السياسي مبررا للكثير من القرارات والتعاملات، سواء بين الدول بعضها ببعض أو حتى مع الأفراد، مثل قبول الهجرة إليها أو الموافقة على اللجؤ السياسي وغيره. وبات الانتماء السياسي فى العالم المعاصر هو الأكثر فاعلية وتأثيرا.

وأصبح النظر إلى الانتماء الوطني مرهونا بالانتماء السياسي للفرد فى البلد الذي يقيم فيه، بل هو صورة التعبير عن "وطنية" الفرد فى المجتمع.

هذا التغير فى المصطلح (بين الانتماء الوطني والسياسي) لا يعنى أن هناك اختلافا أو تضادا بينهما (بين المصطلحين).. فيما يعتبر مصطلح الانتماء السياسي أي هو (الانتماء الايديولوجى بالمعنى الأرحب فى مجال النظرية السياسية والقيم المجتمعية) أصبح الأكثر شيوعا، وهو ذاك المعبر عن الانتماء لبلد ما، والتعبير عن درجة "وطنية" هذا المرء أو ذاك داخل البلد الواحد.

أصبح الانتماء السياسي هو الدرجة التي تحدد وطنية الفرد في المجتمع، من خلال العمل من أجل الوطن وحبه للوطن، والتضحية من أجله، واعتناقه لأيدلوجياته، وتمثله لثقافته وقيمه. كما أن الانتماء السياسي للمرء لا يختلف مع الانتماء الوطني، بل يمثل تلك الدرجة من الوطنية التي تميز الأفراد، حيث أصبح الانتماء السياسي هو انتماء للوطن قائم على أسس سياسية، ثم على الشعور بالشخصية الوطنية.

تعرف الانتماء السياسي: "الدرجة التي تحدد وطنية الفرد في المجتمع عن طريق حبه وولائه للوطن، والتضحية من أجله، وإعتناقه لأيدلوجياته، وتمثله لثقافته، وقيمه"..

مظاهر الانتماء الوطني

هناك ضرورة لاستناد عملية تحديد مظاهر الانتماء الوطني إلى تعريف محدد للانتماء الوطني، حيث أن عمومية هذه المظاهر، وتداخلها أحياناً، يعزى إلى كون التعريفات الإجرائية للانتماء الوطني والتي وردت في بعض الدراسات، هي أقرب إلى مظاهر الانتماء الوطني منها إلى تعريفه، ومظاهر الانتماء الوطني، هي السلوك الذي يجسد القيم الوطنية التالية:

- الاعتزاز بالرموز الوطنية:

عادة ما يختزل الإنسان طريقة تعبيره عن اعتزازه بوطنه من خلال إظهار الاعتزاز بالأشياء التي ترمز بوضوح ومباشرة إلى هذا الوطن، فالاعتزاز بالرموز الوطنية، هو

طريقة تعبير عن الاعتزاز بالوطن، ومن أمثلة الرموز: العلم، والنشيد الوطني، والأزياء والفنون الشعبية.

- الالتزام بالقوانين والأنظمة السائدة:

يسعى الأفراد في كل وطن إلى حياة هانئة، يسودها الاستقرار، والأمن، والنظام، ويبلورون ذلك من خلال تشريعات تشتمل على أنظمة، وقوانين تحظى بالاحترام والقبول، وتترجم من خلال سلوكياتهم عبر الالتزام بها، مما يحفظ هيبة الوطن ومكانته، ويسهل الأمور الحياتية للمواطن، ويشمل ذلك كل القوانين والأنظمة الصادرة عن سلطة الدولة. - المحافظة على ثروات الوطن وممتلكاته:

إنّ ثروات الوطن وممتلكاته هي ملك لجميع أبنائه، وإن الإضرار بها هو إضرار يؤثر سلباً على اقتصاد الوطن، ويعيق تقدمه وازدهاره، مما يؤثر بشكل مباشر على حياة المواطن، لذا فإن المحافظة على ثروات الوطن وممتلكاته قيمة يجب أن تغرس في نفوس الأبناء.

- التمسك بالعادات والتقاليد:

العادات والتقاليد ميزات متباينة لدى شعوب الأرض، والتمسك بها والحفاظ على سماتها، ولعل عدم الامتثال للعادات والتقاليد الدخيلة على المجتمع، أو تلك التي تتعارض مع الدين، أو المنطق العلميّ، فاعليات تشترك الشعوب بها، ويذكر منها، ما هو متبع في حالات الصلح، والخطبة، والزواج، والعزاء وغيرها، وتشجيع المنتجات الوطنية، بصرف النظر عن جودة البضائع المنتجة محليا، والانتماء الحق بحفز المنتمي إلى وطنه بضرورة الشراء من تلك المنتجات، وتشجيع المنتج المحلي.

- المشاركة في الأعمال التطوعية

وهى سمة يجب الالتزام بها، مهما كانت ضعف الإمكانات، وهو ما يجعل المشاركة في الأعمال التطوعية قضية بالغة الضرورة والأهمية، لما لها من أثر عظيم، وإسهام في تسريع عجلة البناء، إضافة لكونها مظهراً هاماً من مظاهر الانتماء الوطني.

– المشاركة في المناسبات الوطنية: إن ذاكرة الشعوب العربية تزخر بكم كبير من المناسبات الوطنية، فهي تأريخ لنضاله، وجولات انتصاراته، وهي أيضاً تعبير عن سخطه لما أرتكب في حقه، ومواقف ظالمة، والمشاركة في إحيائها بمثابة الوفاء للشهداء، والإيمان بالنصر، والعهد على الاستمرار في مقاومة الأعداء.

– التضحية دفاعاً عن الوطن: إن التضحية دفاعاً عن الوطن، تأخذ أشكالاً عدة، فهناك من يضحي بماله، ولعل التضحية بالنفس هي أعظم المظاهر الدالة على الانتماء الوطني، ويزداد هذا المظهر قوة وشيوعاً مع تصاعد وتيرة العدوان الأجنبي..

*****

الفصل الخامس

الدعوة للسلم.. مقاومة أيضا

إذا كانت "المقاومة" في البدء "إرادة" ثم "قرار" ثم "فعل".. ذاك الفعل المتسم بالعنف. فاتجاه هذا الفعل على اتجاهين.. إلى الآخر أو المعتدى المباشر، أو إلى الأنا أو الذات. لتصبح المقاومة بالتالي على شكلين: المقاومة الايجابية والمقاومة السلبية.

أولا: المقاومة الايجابية

وهى الصورة الأقرب إلى الأذهان لفعل المقاومة، حيث تعد الجانب الايجابي والمرغوب من "العدوان". وان كان "العدوان" مذموما بالعموم، إلا أنه لا يعد كذلك عندما يصبح دفاعا عن الذات الجمعية أو تكيفا مع القدرة على الصمود أو عملا فاعلا لمواجهة خطر ما من آخر عدواني. هذا الخطر يتسم بتهديد مصالح "الجماعة" الحيوية أو يسيء إلى القيم العليا المتفق عليها، وقد يهدد حرية الجماعة وربما بقائها في الوطن الآمن.

يوصف فعل العنف في المقاومة الايجابية، بذاك الفعل الذي يتجه إلى الآخر العدواني أساسا، والواعي بحدود جماعته وهويتها وقيمها، والنابع عن إرادة الدفاع عن الجماعة ومصالحها الحيوية. وهو لتحقيق ذلك يتخذ كل السبل حتى يتحقق الهدف الأسمى.

ثانيا: المقاومة السلبية

هي – أيضا – فعل العنف النابع عن إرادة وقرار ثم فعل، هذا الفعل "القوى" يعبر عن نفسه بالعنف، إلا أن هذا العنف يتجه إلى "الأنا" أو "الذات".. وقد يتجه الفعل إلى نقد الآخر وفحصه وتحليله من أجل كشف الجوانب السيئة في هذا الآخر العدواني، دون أن يتسم الفعل بالعنف المباشر، على هذا الآخر. بينما قد يصل إلى ذروة عنفه مع الأنا أو الذات.

ويمكن إجمالا تحديد عناصر المقاومة السلبية بالتالي: "البدء بتحديد الهدف– تعضيد الذات بالوعي والفهم للقضية/القضايا محور الصراع مع الآخر العدواني– كشف صورة الآخر العدوانية– القدرة على تحمل المعاناة المتوقعة من الآخر الأقوى– تفهم الواقع المعاش مع تحمل المشاكل الطارئة حتى يتحقق الهدف الأسمى– العمل على أسس خطة مدروسة للمواجهة بأقل خسائر ممكنة.. وأخيرا تفهم جوهر التاريخ الانسانى، حيث انتصار الخير والسلم والحرية.

لعل نموذج الزعيم الهندي "المهاتما غاندي" أكثر النماذج نضوجا وتمثيلا للمقاومة السلبية. قال في كتابه "في سبيل الحق" أو "قصة حياتي" ملامح المقاومة السلبية. لعله في ذلك وظف ثقافته الهندية التي في جانب منها "المفهوم الخاص بالصمت".

كلمة "الصمت" تتجاوز معناها الانجليزي الذي يعنى "السكون". وتعنى في اللغة السنسكريتية بما يتجاوز هذا المعنى المباشر، وتعنى: السلام، الهدؤ، السكينة. وهى تخص الفرد القادر على الاستنارة دون اللجوء إلى معلم، يكفى أن يقطع عهدا على نفسه بالتزام الصمت لينصت إلى صوت الوجود الذي يستمد منه الأمان والحرية المطلقة.

إجمالا يمكن القول بأن الفعل المقاوم في المقاومة السلبية لا يتسم بنفس تأثير حجم الغذاء المباشر على الآخر العدواني، وقد يؤذى الأنا الفاعلة أكثر. وبالعموم للمقاومة أشكالها المباشرة وغير المباشرة.. ومنها البسيط كإزالة عائق ما أمام الذات كي يتحرك للإمام، من أجل حياة أفضل.. أكثر رقيا وكرامة ورفاهية، ومنها المعقد إلى حد الصراع العنيف والحروب.

ماذا عن السلم؟

"السلام" هو مطلب الإنسان في كل زمان ومكان، هو فطرة الإنسانية، في مقابل "العنف" الذي يرفضه كل عقل راجح. كم عانت الإنسانية من العنف، حتى أن بعض

الدارسين أكدوا أن الإنسان عاش في صراع على الأرض إلى حد الحروب، بما يمثل 80% من جملة أيامه وسنين تاريخ البشرية على الأرض.

تمثل العنف في تلك الحروب التي لم تفرق بين المقاتل والضعيف من أطفال ونسوة وشيوخ، حتى رصدوا بالإحصاء أن الضعفاء هم الأكثر تضررا من المقاتلين أنفسهم. ربما آخر إحصاء حول حروب القرن العشرين الميلادي ترصد 70مليون نسمة قتلوا بسبب العنف الغاشم الذي استتبع المعارك.. لم يفرق بين سكان المدن والمسلحين في ميدان المعركة، ولا بين مقاتل وغيره .

ويشير المتابع للتقدم التكنولوجي لوسائل المقاتلة خلال الربع الأخير من القرن الماضي، هول الخسائر المتوقعة مع كل سلاح جديد. يكفى الإشارة إلى: أن الأسطول الإنجليزي في القرن التاسع عشر ضرب الإسكندرية واحتلها، نجح في تحقيق الهدف 30% فقط من جملة الذخيرة.. بينما قتل بقنبلة واحدة(ذرية) القيت على هيروشيما اليابانية حوالي ستون الفا غير المصابين.

وقد سعت الإنسانية إلى محاولة مواجهة العنف بكل صورة، بوازع ديني، وعاطفي إنساني، وأيضا كل الأيديولوجيات الأكثر تقدما، وبعيدا عن تلك العنصرية التي تذكر في كتب التاريخ من مدخل التذكر والاعتبار.

ففي القرن الماضي تشكلت عصبة الأمم المتحدة من أجل الهدف الإنساني نفسه، وان فشلت فقد جاءت بعدها هيئة الأمم المتحدة.. ومازال السؤال قائم حول تقييم دورها خصوصا مع بدايات القرن الواحد والعشرين. إلا أن السؤال نفسه ومهما كانت الإجابة مع أو ضد تلك المنظمة التي أنشئت في منتصف القرن الماضي.. هذا التساؤل لا يعنى سوى الرغبة الدفينة الأصيلة في الإنسان من أجل تحقيق السلام، ورفض كل صور العنف.

ربما يجدر الإشارة إلى بعض التعريفات:

"العنف": ضد الرفق (وقد أبرز سيد عويس في دراسة منشورة له حول العنف أن المقصود بالعنف في الخطاب العام الإعلامي ..أنه ذلك العنف الإنساني، أي الذي

يصدر عن البشر.. حيث يوجد العنف في الحيوان أيضا). وقد يحدث العنف بين الأفراد كنمط سلوكي، أو بين الهيئات والمنظمات والجماعات مثل التنظيمات السياسية أو المهنية وغيرها. ومن مظاهر العنف "الثأر" أو المشاجرات العنيفة.. وكلها ترتكن على ثقافات اجتماعية تزكى العنف.

"**السلام**": هو ضد مفهوم العنف. وربما من المجدي الإشارة إلى مصطلح "الصراع".. حيث أن العنف يتبدى بالصراع جليا، والسلام يجعل من الصراع تنافسا شريفا كما في الصراع الرياضي. فالصراع يعد عند رجال الاجتماع، نوعا من العمليات الاجتماعية وفيه يحاول أطراف الصراع أفرادا أو جماعات أو حتى الدول تحقيق كل الرغبات التي يحتاجها، ومنع الآخر من تحقيقها. وهو على درجات منها اليومي والهين والشديد إلى حد العداوة.

كما أن مصطلح "الضمير" يتداخل لتفضيل العنف أو السلام أو حتى الصراع أو العداوة. وهو البوصلة التي ترشد الأفراد والجماعات إلى الخبيث والى الطيب من الأعمال والأقوال والأفكار.. به يستقبح المرء أمرا أو يقبله ويندفع نحوه. والضمير يتشكل يوما بعد يوم منذ اليوم الأول لمولد الإنسان، بفضل الثقافات والخبرات المتوارثة والمكتسبة.

وبالتالي فما أحوجنا الآن للإشارة إلى مصطلح "التربية" التي اختلفوا حوله، فليس هو التلقين اليومي من الكبار إلى الصغار، بقدر أن التربية هي الخبرات المكتسبة والقابلة للتعديل والتبديل إلى الأفضل بفضل سعة الأفق، وعملية التقييم المستمرة.. حتى تزدهر ملكات الإنسان ليحقق إنسانيته التي فطره الله عليها.

هناك العديد من الأمثلة والتي أوردها "سيد عويس" (في الدراسة المشار إليها سلفا)، لبيان مظاهر العنف عند الأفراد، وبالتالي تعبر عن أسلوب من أساليب العداوة:

"الإثارة"، "التسلط"، "التعبيرات البدنية"، "المعارضة المطلقة"، "مركز الانتباه"، "التمييز ضد"، "المعاملة في غير احترام"، "الأنانية"، "إرباك الآخرين"، "التعبير عن

الإحساس بالسمو"، "المزاح العنيف"، "المعاملة النفعية"، "الجزع الزائد عن الحد"، "الاعتداء البدني"، "الوقاحة"، "التحكم التام مع التسليم بذلك"، "تحميل شخص ضعيف خطايا غيره"، "عقاب الذات"، "المعاملة الصامتة"، "إفساد ذات البين"، "لهجة الحديث"، "الإذعان دون اقتناع".

أما الأمثلة حول العنف عند الجماعات أو الدول، فقد أورد منها:

"التفرقة اللاإنسانية مثل التفرقة العنصرية بسبب لون البشرة"، "السجون باعتبارها مؤسسة قمعية وليست تهذيبية"، "الحروب على كافة أشكالها المحلية منها والعالمية"، "المؤامرات والدسائس العنيفة"...

جاء "السلم" في معجم "مختار الصحاح" بالمعاني التالية:

السلم (بكسر السين وسكون اللام)= السلام (أدخلوا في السلم كافة) وذهب بمعناها إلى الإسلام.

السلم (بفتح السين وكسرها)= الصلح.

السلام (بفتح السين)= اسم من أسماء الله تعالى.

وقد عمق الإسلام مبدأ السلام والدعوة إليه، يقول الرسول (صلعم):

"السلام قبل الكلام.."إن الله جعل السلام تحية لأمتنا وأمانا لأهل ذمتنا"

ومن دعوته لنا في ميدان الحرب والقتال، إذا أجرى المقاتل كلمة السلام، وجب الكف عن قتاله.. يقول تعالى: "ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا".. "والله يدعو إلى دار السلام"..

"لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما، إلا قيلا سلاما"

ثم تعدى مفهوم الإسلام للسلام من التوجه العام إلى منهج في مناحي الحياة.. فكانت الدعوة إلى الدين بالعقل والإقناع (بالسلام)، ولا إكراه في الدين. كما أن "السلام" هو جوهر علاقة المسلمين بعضهم ببعض: "إنما المؤمنون إخوة"، "المسلم أخو المسلم"..

أما وقد أصبح السلام منهجا للفرد والجماعة، بات المنهج في علاقة الجماعات بعضها ببعض: "وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا، فأصلحوا بينهما، فان بغت أحدهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله".

ثم كانت العلاقة بين المسلمين مع غيرهم: "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين"، سورة الممتحنة آية 8.

ومن أجل أن يكون "السلام" بين الناس والجماعات، كفل الإسلام جميع حقوق الإنسان..

حق الحياة: "من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض، فكأنّما قتل الناس جميعا، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا"، سورة المائدة: آية 32.

حق صيانة المال.. "يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم".. سورة النساء آية 29.

حق العرض.. "ويل لكل همزة لمزه.." سورة الهمزة آية1

حق الحرية.. والمتمثلة في حق المأوى وحق التعلم وإبداء الرأي وغيره، يقول تعالى:"إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا، إن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو ينفوا من الأرض ذاك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم، إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا أن الله غفور رحيم"، سورة المائدة" آية 33

****